المحور الرابع

دور المؤسسات فى تحقيق الأمن المجتمعى

خصص المؤتمر - المحور الرابع من بحوث وفعاليات المؤتمر، لدور المؤسسات فى تحقيق الأمن المجتمعى، ودارت البحوث المقدمة حول " قضية التقدم فى العالم العربى وحتمية بعثه "، وحول " دور المسجد فى تحقيق الأمن المجتمعى "، و " دور الجمعيات الأهلية فى تحقيق الأمن والسلام "، و " دور المؤسسات فـــى تحقيق الأمـــن المجتمعى "، ودور مؤسسة المسجد ودور المساجد فـــى جمهورية قازاقستان، ومخاطر الأمية على الأمن الاجتماعى ودور الأئمة والمساجـــد فى معالجتها، ودور الأسرة فى هذا المجال. وتناول هذه البحوث علماء وكتاب من مصر، ومن ليبيا، ومن الأرجنتين والهند وجنوب أفريقيا، ومن الكاميرون وقازاقستان والبحرين، والسعودية واليمن، وتايلاند والسنغال، وتركيا ولبنان وقرغيزستان، ومن أمريكا وأوزبكستان.

وتصدر بحث الأستاذ الدكتور إبراهيم بدران رئيس جامعة القاهرة الأسبق ووزير الصحة المصرية الأسبق عضو مجمع البحوث الإسلامية - تصدر بحوث هذا المحور تحت عنوان: " قضية التقدم فـــى العالـــم العربى "، منبها فى مستهله إلى لزوم الاهتمام بمنابع التقدم فى الصحة والسلامة مع توافر الغذاء، وفى التعليم والبحث العلمى واقتحام مجالات التطوير التكنولوجى، ووجوب إرجاع عوائد التنمية الشاملة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا للجميع، حالة كون ذلك هو الداعى والكافل للاستقرار والأمل، وكلها واجبات وفرض عين لرعاية الإنسان العربى إعمالا للحديث النبوى: " إن الله سائل كل عبد عما استرعاه - حفظ أم ضيع ".

وعن الإطار، يلاحظ الباحث دخول أكثر من ٨٠% من شعوب العالم فى توحدات كما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية، أو فى منظومة الوحدة الأوروبية، لم تجارها فكرة الجامعة العربية التى لم تتعد للآن العلاقات الصحية والدراسات، بينما ظهرت تكتلات جديدة مثل " النافتا " التى شملت كندا والولايات المتحدة والمكسيك، و " الآسيان " فى شرق آسيا، والدول المطلّة على المحيط الهادى، وتقارب دول أمريكا الجنوبيـــة، وقد انضمت أخيرا بعض الدول الإسلامية إلى التكتلات الآسيوية التى تجمع حوالى ٨٥% من سكان العالم، أما الباقى فيتمثل فى بعض دول أفريقيا السوداء، والباقى فى الدول العربية الإسلامية التى بلغت الآن نحو ٣٠٠ مليون من المتوقع أن يصل تعدادهم عام ٢٠٥٠ إلى ٧٠٠ مليون نسمة.

ومع الإشارة إلى وجود المقومات التى تفتح الفرص للإنسان العربى، كالبعد الإنسانى الاجتماعى والتاريخى والجغرافى والقيمى، والبعد الدينى بما فيه تقارب اللغات والأسس العقدية بين الإسلام والمسيحية فى النسيج المصرى، والبعد العرقى المتمثل فى الجذور والموروثات الحضارية والجينات والتراحم والتزاوج، والبعد الجغرافى المتمثل فى التواصل الطبيعى الذى لم تفلح الحدود المصطنعة فى وقف انسيابه - فإن البعد العلمى على التخصيص يستلفت النظر إلى ما لحقه ويلحقه من تطوير فى عالم العولمة الذى تغير فيه الإحساس بقيمة الوقت والمسافة بظهور الإنترنت وما توفره الأقمار الصناعية، وسهولة نقل المعلومات والأموال، وحل شفرة الحياة فى العلوم البيولوجية الحديثة مع توافر القدرة على التحكم فى الجينات.

ينتقل الباحث بعد استعراض سريع للمخاطر المحيطة والمؤثرة فى القضايا العربية - إلى "الفجوات" الاجتماعية المبتدعة والإقليميـــة المـــصطنعة نتيجـــة سياسات الاستعمار والاستغلال الخارجى مع القهر الداخلى واستنزاف الموارد - وتضخيم المفارقات الطبقية والقبلية والاجتماعية والمادية، وضـــعف قـــدرة الشعوب - بالتنازلات السياسية فى حقوقها - على النمو والإفادة مـــن وســـائل

العصر، والتحكم فى استكشاف مصادر القدرة - كالبترول - حسب المزاج، وفى تواضع التقدم البحثى، مما أدى إلى " فجوة معرفية " رسخت التبعية التنموية والسياسية المعيقة للتقدم، ومن آثارها التدهور البيئى، وفرض معايير أمان Technology Degradation باهظة التكاليف، ودفع الأمة إلى صراعات سياسية داخلية وخارجية، وتعظيم الخلافات التى قد تنتهى إلى التطهير العرقى (دارفور والصومال كمثال)، والتدهور الصحى والأمنى بسبب تغيرات ديموجرافية وسياسية وزيادة الفقر والبطالة، وتدهور السلوكيات العامة.

هذا الوضع لا بد أن يؤثر بالسلب على الأمن المجتمعى، لذلك يبدأ الباحث بالتنبيه إلى أن ازدياد البطالة يستوجب تحركات سريعة يضرب لها أمثلة بإعادة التأهيل والتدريب لاكتساب المهارات الجديدة المطلوبة فى الأسواق، وتطوير جذرى لبرامج وأساليب التعليم بعامة والجامعى بخاصة، والتركيز على المجالات المطلوبة من التكنولوجيا الجديدة بأنواعها، ومواجهة صعوبة توزيع القوى البشرى الإقليمية على المناطق قليلة السكان والتى حداها ذلك القصور إلى الاعتماد على استيراد قوى بشرية مدربة من دول خارج المنطقة، وبعيدة غالبا عن السلوكيات الاجتماعية المقبولة.

يتوقف الأستاذ الدكتور الباحث، وهذه مهنته بل رسالته وحياته، عند الصحة والدواء - الغذاء والماء، فيطيل التفصيل فى تمكن و قتدار حول الصحة والدواء ومستلزماته لتحقيق العائد الإنسانى الأعلى والمضمون، أو كما قال تيودور شولز العالم الاقتصادى: " إن الاستثمار فى الإنسان - صحة وغذاء وتعليم ".. ولا يمكن رسم وتنفيذ ذلك دون الإحاطة بالمستجدات المتطورة على الساحة العالمية فى القرن ٢١، والظواهر العالمية المؤثرة فى الحياة كالنظام العالمى الجديد وحقوق الإنسان وحقوق الفرد وتأثيرها فى الصحة والتعليم والغذاء والمعلومات، أو دون الإحاطة بالعوامل المؤثرة على الصحة فى عالم اليوم، كالتقدم العلمى والتكنولوجى والمتغيرات السكانية والديموغرافية وسرعة

وسهولة التنقل والثورة الصناعية وأثرها فى تلوث البيئة وارتفاع أسعار نفقات العلاج الصحى، وتطور سبل ومسارات التعليم الطبى.

فما هى العوامل المؤثرة فى الحالة الصحية فى العالم ؟ سؤال هام يثيره الأستاذ الدكتور بدران ليحصر الأسباب فى أسلوب تلغرافى حتى لا تضيع الخطوط العريضة فى التفاصيل: تقدير قيمة الوقت فى إنقاذ الحياة خاصة فى الحوادث والحالات الحرجة. قيمة البحوث الطبية والدوائية والاستقصاءات الصحية الكاشفة. ملاحظة تغير السلوكيات البشرية والمهنية بما فيها السلوكيات الطبية والحيوية. مدى تعظيم دور التعاون الخارجى والترابط الداخلى للاستفادة بالمستجدات فى الطب والعلاج. متابعة قضايا إنتاج الدواء والتحكم فى أسعاره وأنواعه، وإنتاج الغذاء وتداوله والتحكم فى كمياته وجودته وعدم تناسى أدويـــة الفئات الفقيرة، وملاحظة الآثار السلبية لاستغلال المنتجات الزراعية فى إنتاج الطاقة مما سوف يؤثر فى أسعار الغذاء.

وتحت عنوان المؤشرات الأساسية لرصد الحالة الصحية، يتحدث الأستاذ الدكتور إبراهيم بدران عن البحوث والدراسات اللازمة التى ظهرت، وعن التحركات المطلوبة فى تقييم الأولويات المرضية وأعبائها، والسلبيات ومواجهتها، وتقييم أسلوب الحياة والدخل للطبقات المختلفة، وتحديد نسبة الوفيات بعامة وفى الشرائح المختلفة، وتقييم فاعلية المنظومة الصحية والوبائية، والاهتمام بمستوى السلوكيات الصحية الحميدة.

ذلك كله يستلزم فيما ينبه الأستاذ الباحث إلى وجوب تطور التنمية البشرية فى المجال الصحى، ومعرفة وتفعيل الأسس الحاكمة والمطلوبة لتقريب مستوى الخدمات الصحية لتتوازى مع المتغيرات العالمية وتحديد المنظومة المناسبة للقيام بهذه الأعباء ابتداءً بالوقاية ثم بتوفير أنماط ووسائل العلاج فى إطار منظومة اجتماعية تكافلية لا تهمل الفقير، ورعاية حالات الإصابات والكوارث، وتحقيق وضبط جودة الأداء ورفع مستوى الخدمة الطبقية وقايةً

وعلاجاً على أساس منظومى متكامل وأسلوب عمل وتدريب كافل لتحقيق هذه المنظومة.

لا يتركنا الأستاذ الباحث دون اقتراح مشروع كامل متكامل، وبيان تقييمه وعناصره، فى إطار تكافل اجتماعى يستشهد عليه الدكتور بدران بقول الحق تبارك وتعالى: " وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" (المعارج: ٢٤، ٢٥).

ضمن هذه العناصر يتوقف الباحث عند قضية الدور العربى، ودور وخصوصيات السلوكيات الطبية فى الخدمة الصحية، وتقنيات المستوى الإدارى للأداء، والصفات الواجبة لمسئولية الطبيب السلوكية وخصوصية الأمن الغذائى فى إطار التكامل الغذائى والمالى، يتبعها بإحصائيات وافية ومفيدة للمساحة الزراعية المتوفرة فى العالم العربى، وما يتبعها من الثروة الحيوانية والسمكية والموارد المائية المتاحة بأنواعها ومصادرها المختلفة، والفقر المائى فى بعض المناطق وعلاجه، ومصادر المياه الجوفية وما تتيحه وتفتحه من وسائل تعويضية.

هذا البحث هو تصدٍّ واعٍ نابع من الإسلام ومبادئه فى العدالة الاجتماعية ورعاية الفرد والمجموع وتوفير الغذاء والماء والسكن والعلاج - ويورد رؤية متميزة لما دار حوله ومن أجله المؤتمر: كيف يتحقق الأمن المجتمعى فى الإسلام ؟ لا يتوقف الباحث عند الآمال، وإنما يضع الحلول النظرية والعملية لتوفير هذا الأمن من خلال الأمن الصحى والغـذاء المائى، يختمه بتساؤل هام يجيب عليه: إلى أين المسار ؟

تحتاج هذه الآمال العريضة إلى مشروع تنموى متكامل لتحقيق نهضة وتنمية مستدامة، وإلى الالتفات إلى أهمية التكامل الاقتصادى لكفالة الاعتماد المتبادل، وإلى أهمية الرعاية التغذوية كمدخل أساسى ولازم وضرورى للمنظومة الصحية، وإلى تحقيق التكافل الاقتصادى بين الأفراد والمجتمعات،

والتركيز على الثروة الزراعية والحيوانية والداجنية والسمكية بدعم المياه وترشيد استغلالها، وعلى سلامة الأرض والمحاصيل والحيوانات الحقلية، والاهتمام باستغلال بدائل الطاقة الحفرية لأهمية الحفاظ عليها لاستغلالها لأطول وقت ممكن.

هذه الرؤية هى إجابة موضوعية ومحققة تضع الحلول فى موضعها لكيفية كفالة الأمن المجتمعى فى الإسلام.

* * *

لافت للنظر، أن المحور الرابع للمؤتمر قد ضم ثمانية مقالات عن " دور المؤسسات " فى تحقيق الأمن المجتمعى، وخشيت التكرار مع هذا التعدد، وفى مقال الدكتور عبد الله التطاوى، عنى بدور المدرسة والجامعة على التخصيص باعتباره نائب رئيس جامعة القاهرة، فلا يمارى فى حدوث تدنٍّ فى المستوى التعليمى يستحضر ضرورة الإصلاح وما يستوجبه من حزمة برامج إصلاحية تبين أنها يجب أن تبدأ من تطوير المناهج بحيث تكون المناهج الجديدة جاذبة لا طاردة للطلاب، مما يستلزم دعم المعلمين بجدد مع الحاليين الواجب تأهيلهم لتكريس القدرة على توصيل المناهج العصرية، مع إحياء الضمير العلمى للمعلم، ومواجهة محنة تفشى الدروس الخصوصية وآثارها السلبية، بما فى ذلك تفشى ظاهرة التباهى بذلك بين الطلاب الأثرياء، وظهور أباطرة بين المعلمين على حساب الفقراء، مع ابتعاد فعلى عن المقومات التعليمية، الأمر الذى سرعان ما تظهر نتائجه فى المرحلة الجامعية، والتى امتدت إليها المحنة هى الأخرى فى ظل الكثافة الطلابية وتكدس المدرجات ونضوب المعامل وغياب تفعيل الساعات المكتبية للأساتذة، الأمر الذى يستوجب تفعيل ضمانات الجودة ضمن سلسلة من الاقتراحات يفيض الباحث فى الحديث عنها.

لا يهمل البحث وجوب الاهتمام باحترام الهويـــة والخصوصية الثقافية، مع تعزيز النسق المجتمعى والتاريخى والإيقاع النفسى والوجدانى والجمالى بما ينعكس بالإيجاب على منظومة العلاقات الحاكمة للجماعة، ومنها الاعتبار الأمنى بروافده ومعطياته المتنوعة. ولأن اللغة هى وعاء الثقافة ووسيلة التفكير الذى يحدد رؤية العالم ونواميسه، لذلك فإن الاهتمام باللغة العربية يشكل ركيزة لتحصين الهوية وجنى هذه الغايات، والذى يعنينا فى إطار ما أفاض فيه الباحث من حديث عن اللغة وموقعها من تاريخ التعليم والهوية، وآراء ابن خلدون، أن الباحث لم يتجمد على اللغة العربية، ولم يطلب الانحصار فيها، بل طلب المزيد من الانفتاح على اللغات العالمية لمواكبة موجات التقدم التكنولوجى المذهل، واستيعاب التطور المعرفى، وهو ما يحقق - مع الاحتفاظ بالخصوصية الثقافية - بقدرة أوسع على التعامل مع العالم بفهم وقدرة على استيعاب وإدارة الحوار معه، ومع قيمة استطرادات الباحث حول اللغة التى يبدو واضحاً أنها تخصصه، فإنه من المهم الربط بين الموضوع وبين أثره فى تحقيق مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام، وهو ما أظن أن البحث لم يتفطن إليه بالقدر الكافى، وإن استطعنا أن نستخلص من مادته أن النهوض بالتعليم واتساع الفهم والمدارك، ينبذ التعصب والجمود، ويقيم جسورا للتواصل الإنسانى بما ينعكس بالإيجاب على مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام.

وكما اهتم الدكتور التطاوى بالمدارس والجامعات بحكم تخصصه، اهتم الدكتور أحمد أبو الوفا أستاذ القانون الدولى بحقوق القاهرة ــ بدور الجمعيات الأهلية، فبدأ بالتعريف بها والقانون الذى ينظمها لينتقل مباشرة إلى فكرة الأمن المجتمعى فى الإسلام، فيحدد تأصيلها من واقع الكتاب والسنة، وذلك متكرر فى بحوث المحاور السابقة، انتقل منه الباحث إلى مبدأ التعاون بين المسلمين، وأسس هذا التعاون التى أوردتها وأكدت عليها آيات القرآن الحكيم.. فالتعدد للتعارف، والتعاون يكون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، مثلما أكد

الحديث النبوى على هذه المعانى، مثل حديث: " من كان فى حاجة الناس كان الله فى حاجته ". وحديث: " والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ".

بعد ذلك يلاحظ الباحث أن المرد الأساسى لتحقيق الأمن المجتمعى ــ هو لزومه لجميع المسلمين، ومع أن الباحث أستاذ للقانون الدولى، وهى مادة مليئة بالآيات على شمول رعاية المجتمع الإسلامى لكل الموجودين فيه، مسلمين وغير مسلمين، إلاّ أن الأستاذ الباحث أفاض كثيرا وأورد الأدلة تلو الأدلة على لزوم ذلك الأمن بين المسلم والمسلم، دون أن يلتفت إلى أن الموضوع هو مقومات الأمن المجتمعى فــى الإسلام. أى مقومات أمن المجتمع بعامة، بما يشتمل عليه ويضمه من مسلمين وغير مسلمين، وأن حجة الإسلام فى هذا الباب أنه قد ضمن ووفر الأمن للمجتمع كله بعامة، لا للمسلمين بخاصة، ولم يلتفت الأستاذ الباحث مع أنه متخصص فى القانون الدولى ــ إلى دور الجمعيات الأهلية على الصعيد الدولى إلاّ بعد قرابة عشرين صفحة محصورة فى أمن المسلم، ثم هو حين عرض فى آخر وريقات البحث (ص ٩٦٣) إلى دور الجمعيات الأهلية على الصعيد الدولى، حصر الحديث على الجانب الدولى بمعناه الاصطلاحى فيما بين الدول من علاقات واتفاقيات وعهود ومواثيق، ولم يذكر دور الجمعيات الأهلية فى حماية حقوق الإنسان إلاّ فى عبارات مبتسرة بآخر ص ٩٦٥.

وربما يحسب للباحث أنه تفطن إلى الموضوع ص ٩٦٦/٩٦٧، فأورد أن تحقيق الأمن المجتمعى - وهو أمن الجماعة بمفهومها الواسع، وهذه أول مرة يستخدم الباحث فيها هذا التعبير ــ له جناحان ! الجناح الحكومى بوظائفه وآلياته، والجناح غير الحكومى كالأفراد أو الجمعيات الأهلية التى عليها تنسيق أنشطتها والعمل على ترسيخ الأمن المجتمعى بمفهومه الشامل اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، والتخفيف عن كاهل الدولة. أما كيف، فإن الصفحات الطويلة التى استغرقتها المقدمات، لم تسمح للبحث بأن يقدم لنا رؤية موضوعية تفصيلية مدروسة للدور الحيوى الواجب على الجمعيات الأهلية بذله

لتحقيق الأمن المجتمعى فى الإسلام، ولعله اكتفى بالقول فى نهاية بحثه بذكر أن: " تكوين الجمعيات لعمل الخير لايمنع منه الشرع والقانون " ! كنت ولا أزال أنتظر من الأستاذ الباحث أن يبين لنا كيف يجب أن يكون إسهام الجمعيات الأهلية فى كفالة الأمن المجتمعى فى الإسلام !

وقريب من هذا المجال الذى تخيره الباحثان السالفان، ما كتبه الدكتور حسن بن سليمان أو رموشيف مدير جامعة محمود قشغازى برسقانى عن الأرض والسلامة فى التعليم والتربية فى قرغيزستان، ملاحظا أنه إذا كانت التربية والتعليم ركنا جوهريا يعتمد عليه تعليم طرق الحياة، فإن القدماء قد أصابوا حين قالوا: " إصلاح تفكير الإنسان أصعب من إفساده " !، وأنه لكى تنتج التربية المرومة أثرها فى إصلاح النفوس، فإنه يتعين أن تبدأ من الطفولة، وأن تستهدف تعليم الدعوة إلى الأمن والسلامة للمجتمع العالمى، وشجب الفساد والمفسدين الذين يروعون الناس ويقتلونهم بلا سبب، ويشعلون النار بين الجماعات والشعوب. وتحقيق هذه الغاية يستلزم الاعتماد على التوجيهات الإسلامية فى برامج التعليم والتربية فى المدارس والجامعات، وأن تعنى بالعدالة والحفاظ على الأمن والسلامة فى المجتمع.

ويتوقف الباحث عند تجربة بلده، فيورد من واقع الإحصائيات دور الجامعات الدولية والشرقية والأجنبية وكلية اللغة العربية والمراكز التعليمية فى تدريس الديانات، وما أصدره برلمان قرغيزستان فى ديسمبر ١٩٩١ من قرار عن حرية الدين والجمعيات الخيرية، وكيف طفقت الحكومة هناك منذ ذلك التاريخ تعنى بتشجيع المسلمين على دراسة قواعد الدين وشرائعه، وافتتحت جامعة عمر بن الخطاب الإسلامية، وسبعة معاهد إسلامية ونحو أربعين مدرسة، تتبنى الدراسات والبحوث التى توصل التعليم والتربية الصحيحة التى تصب فى صالح كفالة أمن المجتمع بأفراده ومجموعاته على أسس إسلامية تحارب الآفات والعادات الضارة كالخمر والتدخين والمخدرات والدعارة والسرقة، وتكرس القيم الإسلامية النبيلة الكريمة، وهو ما دلت الإحصائيات

على أثره الملموس فى تربية الشباب على قيم النظام والعدل والصدق والرحمة والصبر وحب العمل وإتقانه.

وأضاف الباحث أنه من آثار هذه السياسة أن نجح المتعلمون من خريجى الجامعات والمعاهد فى شغل الأماكن المؤثرة متسلحين باللغة العربية، والمواقع الصحفية والإذاعية بما ساهم فى إثراء الوعى، ومحاصرة العنف والإرهاب، وبث السلام والطمأنينة والأمان فى المجتمع الإسلامى هناك.

دور المنظمات الإسلامـــية

نعود الآن إلى باقى المقالات أو البحوث الثمانية التى اتخذت لنفسها مادة واحدة هى دور المؤسسات فى تحقيق الأمن المجتمعى، بعد أن تناولنا ما تعلق منها بدور المدرسة والجامعة، أو بدور الجمعيات الأهلية، وفى إطار التربية والتعليم.. وتكون باقى المقالات وهى خمسة، قد تناولت شأنا واحداً، فتناول المهندس محمد يوسف هاجر - من الأرجنتين - تناول الموضوع من زاوية دور المنظمة الإسلامية فى أمريكا اللاتينية والكاريبى التى تأسست عام ١٩٩٧ من (١٩) دولة لأجل توطيد العلاقات وتوحيد وتضافر الجهود فى بث روح التعاون المشترك وتنسيق وتوحيد وتفعيل دور الحوار والانخراط فى المجتمعات التى تعيش فيها الجالية المسلمة فى أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبى لتحقيق الأمن المجتمعى.

وانضمت إلى هذه المنظمة التى باشرت دورا ملحوظا، مجموعة منتدى الكاريبى، وصار اسمهما معا: " المنظمة الإسلامية لأمريكا اللاتينية والكاريبى، وتراعى فى نشاطها المعطاء خصوصية ظروف المسلمين هناك، فالهجرة الإسلامية إلى هذه الأراضى بدأت منذ عام ١٨٥٠، وهناك دراسات تشير إلى أنها بدأت قبل حركة الكشوف الأولى، فضلا عن البحارة المسلمين الذين صاحبوا كريستوفر كولومبس فى هذه الأراضى الجديدة التى توزعوا فى شتى بقاعها، وساهموا مع العبيد المسلمين المستجلبين من سواحل أفريقيا فى نشر الإسلام. وأنه ساعد على اتساع دور المسلمين وأثرهم أن دول أمريكا اللاتينية لم تكن دولا استعمارية، ولشعوبها طباع أشبه بالطبائع الشرقية، وأنه ساعد على اندماج المسلمين فى هذه المجتمعات الزيجات التى عقدت بين شبابهم وبين بنات بلاد المهجر، واحتضان وتهجين العادات فى ذيوع وانتشار الإسلام الذى استطاع مع تواضع وبساطة شعوب المنطقة أن يؤدى دورا فعالاً، سواء

فى كفالة أداء شعائره، أو فى انتشار الإسلام بلا معوقات أو مضادات، وأنه ساعد على انتشار الأمن والأمان، أن الدستور السائد هناك حرم أى صور للعنصرية، وكفل احترام مقدسات الأديان، فخلا المجتمع من أى مظهر من مظاهر التعصب، واحترمت المقدسات الإسلامية احتراما لاقاه المسلمون باندماج صحى مع طوائف المجتمع فى باحة واضحة من الأمن والأمان، غذى ذلك تحلى المسلمين بالصدق والأمانة والنزاهة فى السلوك وفى المعاملات.

ويحكى الباحث أنه تأكيدا للأمن المجتمعى الذى يرعاه الإسلام، حرصت المنظمة على عقد لقاءات متواصلة مع المسئولين عن الشئون الدينية والتربية ورجال الدين المسيحى تاركين جانبا العلاقات السلبية التى تجلب البغضاء والكراهية، مما أتاح حوارا حياً عاقلا وتواصلا وتعاونا بين الأطياف الدينية لتحقيق الأمن الاجتماعى وحماية الإنسان الذى كرمه الله وحرم الاعتداء عليه، وهو ما ساعد على بيانه وتوثيق المنظومة الأخلاقية الإسلامية الرفيعة، وفى إطار دستور للتعامل اتفق عليه الجميع: ١ - احترام كرامة الإنسان ٢ - الاعتراف بالآخر ٣ - حق تكافؤ الفرص ٤ - لا إكراه فى حرية الفكر والضمير والمعتقد ٥ - وثيقة وصراحة لغة الحوار.

وتحت ذات العنوان تقدم الأستاذ إبراهيم عبد السلام إبراهيم، من الهيئة العليا للأوقاف وشئون الزكاة فى ليبيا - بمقالة بحثية، عرضت بعد المقدمة عن نبذ العنف فى الإسلام ودور الأسر فى تحقيق الأمن المجتمعى، للحديث عن أن الأمن المجتمعى مطلب عالمى، ولا اعتراض لأحد على ذلك من ثم فإنه لا يضيف جديدا، وعن أن العنف باسم الإسلام مرفوض، وأن الإسلام برىء من الإرهاب، وهذا بدوره متفق عليه.. بعد ذلك تحدث البحث عن دور المسجد، ثم عن دور الأسرة، ثم دور المدرسة والجامعة، ثم دور الإعلام والثقافة فى تحقيق الأمن المجتمعى.. أما عن دور المسجد فقد تناولته بحوث أخرى على استقلال سنعود إليها، ودور الأسرة متفق على أهميته فى تربية النشء وبث السلوك القويم وثقافة التعاون والتسامح، ودور المدرسة والجامعة تناوله

باستفاضة عرضناها بحث الدكتور عبد الله التطاوى، ومع أن البحث تناول دور الإعلام والثقافة فى تحقيق الأمن المجتمعى، إلاّ أنه تحدث عن قوة وآليات الإعلام، وأشار إلى أهمية دوره فى التوعية والتبصير - ولكن كيف، وما هى العوائق والسلبيات التى تحول دون ذلك ؟ لم يجب البحث على هذا السؤال المهم، مع أنه أهم وأخطر ما يجب التعرض له عن الإعلام العربى على وجه الخصوص.. فلم يعد خافيًا أن كثيرا من قنوات وآليات الإعلام العربى تنشر ثقافة التعصب والتمحور على الذات، وتعطى ظهرها لثقافة التفاهم والتسامح.. والأمثلة على هذا الجنوح فى آليات الإعلام العربى بعامة أوسع من أن تحصى أو تقع تحت حصر. يكفى أن تلاحظ احتقان أحاديث لبعض المتحدثين، وجموح تعصبهم ومصادرتهم على كل ما يخالف خطهم أو يناقش أفكاره أو يبدى رأيا أو فكـرة لا تروقه، ومع ذيوع ثقافة التعصب والانغلاق وغياب ثقافة التسامح، جعلت بعض قنوات أو آليات الإعلام تحشد الحشود لبث ما تريد مما يؤدى إلى الاحتقان وغياب الأمن والأمان، ويستطيع كل متابع لأى حادث طائفى - وخذ مصر على سبيل المثال - أنْ يلاحظ أن " مفردات " التناول فى كثير من الصحف تؤدى إلى الاحتقان بل تشعله ولا تداويه، وأن ذلك راجع إلى غلبة رغبة السبق الصحفى أو الظهور، على مقتضيات الوحدة الوطنية واعتبارات الأمن الذى يجب أن يسود المجتمع أخذا بذات مبادئ الإسلام التى اتسعت لكل من يعيشون فى المجتمع الإسلامى أيا كانت دياناتهم أو مللهم أو عقائدهم !

وعن ذات " دور المؤسسات " - كتب الشيخ أبو بكر أحمد سليار الملبارى من الهند، فتحدث بدوره عن عموميات الضرورة الملحة للأمن المجتمعى الإسلامى، وعن مصادر وأسانيد ذلك فى الكتاب والسنة، وقد مرت بنا كثيرا فى بحوث أخرى ولا محل لإعادة ترديدها، كما تحدث الباحث عن دور الأسرة، وهو تناول متكرر لم يزد فيه البحث شيئا عن الكلام المعاد عن واجب الأسرة فى تربية النشء وتقويم الأخلاق، ولكنه - كغيره - لم يعرض لما يصيب

بعض الأسر من انشقاقات مدمرة بسبب جموح وتطرف وتعصب بعض أفرادها وفساد علاقتهم بباقى الأسرة وتوارى أثر ومحبة ومودة القربى، مما يشكل أزمات أسرية باتت ملحوظة فى كثير من العائلات، وتستوجب النظر والعلاج واستحضار معانى صلة القربى واستخدامها أثرها فى محو التطرف ومعالجة سلبيات التعصب، وغير ذلك كثير واجب تناوله بدلاً من الألفاظ والعبارات المكررة المعادة عن أهمية دور الأسر، وكأن ذلك بذاته يحل ما تتعرض له بعض العائلات من ضربات موجعة فى الصميم تعرض الأمن المجتمعى لأوخم العواقب والأضرار.

بعد ذلك عاد البحث لتكرار ما ورد فى البحوث الأخرى من أحاديث معادة عن دور المدارس والمعاهد والجامعات، والإعلام والثقافة، ولعل الشىء المتميز فيما تناوله الباحث أنه فصل الحديث فى التجربة المحلية فى كيرالا.

وقريب من هذا النمط فى المعالجة بذات الموضوع، تقدم الأستاذ أحمد يوسف لوكهات رئيس المنظمة الإسلامية التعليمية فى جنوب أفريقيا، فكرر الحديث المعاد عن دور الأسرة والأب والأم والأبناء، ودون غوص فيما يعترض بعض الأسر من ظروف سلبية تؤثر بجموح أو تطرف بعض عناصرها وأثر ذلك على وحدة وأمان ودور الأسرة، وما يتعرض له باقى عناصرها من مؤثرات سلبية لمن تطرفوا أو جمحوا منها فى اتجاه التعصب والعنف والإرهاب، كما كرر الباحث ذات الحديث المعاد عن دور المدرسة والجامعة، وكذلك عن دور الإعلام والثقافة، دون بيان أو تفصيل لكيفية أو أداء وسلامة هذا الدور وتحقيق تأثيره المرجو فى محاصرة الاحتقان والتطرف والتعصب ونشر ثقافة التسامح، وهى ثقافة جذورها وقاعدتها إسلامية.

* * *

لم يتحدث بحث من هذه الأبحاث بكفاية عن دوحة المساواة والتسامح فى الإسلام، وفى هذين الجناحين يكمن أساس ركنين أساسيين للأمن المجتمعى فى

الإسلام. فسماحة الإسلام من خصال وشمائـل الإسلام، وهى خصلة جامعة لخصاله تلتئم مع كل هذه المعالم والسمات فى اتساع الإسلام للعالمين إلى يوم الدين، وامتداد راحته إلى من لم يؤمن به مثلما هى للمؤمنين به.. والإسلام يخاطب الناس كافة على سنن الهداية والبيان والإقناع الذى يخاطب الألباب والضمائر والوجدان، ولا يغلق دون أحد بابه، ولا يوصد راحته أو يعطى ظهره فى وجه أحد.. واستلزم منظومة معطرة من الأخلاق والسجايا والخصال جعلت من راحة هذا الدين عنوانا للتسامح، سواء بين بنيه المؤمنين به، أم بينهم وبين باقى الناس، كل الناس، على اختلاف أديانهم ونحلهم ومللهم وعقائدهم ومذاهبهم وأعراقهم وأجناسهم وبلدانهم.. عدل الإسلام، عدل مع الناس كافة، يتجه إليهم بسواء موازينه دون ما تفرقة لأديان أو ملل أو نحل أو أعراق أو أحساب أو أنساب.. منظومة الأخلاق الإسلامية، تلك البديعة الرائعـة، الشاملة الجامعة المانعة - أرادت للمسلم ورسمـت له وحضته وأكدت عليه وأرشدته أن يكون فى الدنيا ينبوع خير ومحبة وألفة ورفق وعطاء وتواصل.. سماحة الإسلام مع منظومة سجاياه رسالة إلى الدنيا فرقت بين عهدين.. تسالم وتبث المحبة والإسماح ولا تبادئ بعداء، ولا تلفظ من رحابها أبناء الملل والديانات الأخرى، بل هى تؤمن الكافر وتجيره حتى يسمع كلام الله ثم تبلغه مأمنه.. فى القرآن المجيد: "وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ". (التوبة: ٦).. كفر الكافر وشركه دال على جهله وانعدام أو فقر علمه، فإن علم كان العلم كفيلاً بهدايته.. لذلك لا ييأس الإسلام قط من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن.

فى هذه المعانى كتبت كثيرا فى عالمية الإسلام، استحضارها هنا هو أوجب الواجبات لبيان أساس الأمن المجتمعى فى الإسلام، ومقدمة المقدمات لهذا الأمان أن الإسلام رفض كل أنواع العصبية وهى عدوة السماحة والإسماح.." يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات: ١٣).. " كلكم لآدم.. وآدم من تراب.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم." يتسامح الناس، ويتسامح المتدينون، حين يدركون أن أصلهم واحد، وأن انتماءهم إلى شجرة واحدة.. إلى ذلك لفت القرآن الحكيم، حين نوه فى العديد من آياته إلى أن الناس جميعاً ينتمون إلى أصل واحد ونفس واحدة.." يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء "(النساء: ١).. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد، تنهدم به نعرات العنصرية والعصبية، وتتسع الباحة الإسلامية الوارفة إلى الناس جميعا على سنة الهداية والإسماح.. لا معيار للمفاضلة إلاّ بالعمل والتقوى.. الهداية الإسلامية لا تفرض بالقسر والإرغام، وإنما هى دعوة هادية بالمحبة والبيان.. " مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى." (الإسراء: ١٥).." قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ " (الأنعام: ٩١).

وعلى هذا تقوم أسس الأمان والأمن للمجتمع الإسلامى. *

* عن كتاب ــ عالمية الإسلام ــ رجائى عطية ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ــ ط ٢٠٠٣

دور المسجد
فى تحقيق الأمن المجتمعى

لم يعد باقيا من بحوث أو مقالات المحور الرابع لمؤتمر الأمن المجتمعى فى الإسلام، إلاّ ما كتب حول دور المسجد، ومن هذه المقالات مقالة الدكتور جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية، وعن وظيفة المسجد ذكر أنه شرع لعبادة الله وحده، وأن هذه العبادة تتمثل فى الصلاة والطواف بالبيت العتيق، والاعتكاف للعبادة فيه، وأنه رمز وحدة المسلمين.. يتعلمون فيه ويمارسون شعائر الإسلام، ويتلقون أحكام الشريعة.. يجتمعون فيه للصلاة فى مساواة وتآخٍ يقارب بين الأفئدة ويجمع الكل على محبة الخير والإقبال عليه.

ويضيف الباحث من واقع السيرة النبوية، أن النبى ﷺ، مارس من خلال المسجد عملية بناء الأمة على البر والخير والتقوى وطاعة الله والتمرس على عبادته، والحض على التعارف والتعاون فى الخيرات ونبذ الإثم والعدوان والمعاصى.. ونجد هذه المعانى فى دعوة الخليل إبراهيم التى قال فيها القرآن المجيد:" وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ " (الحج: ٢٦- ٢٨).. وجاء فى سورة البقرة قوله تبارك وتعالى: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ" (البقرة: ١٢٧ ــ١٢٩).

وبذلك تتحدد وظيفة المسجد فى عبادة الله بما تعنيه من الاعتكاف والتفرغ للعبادة بما يضفيه ذلك على العباد من سكينة ووقار وتضرع وخشوع ولين وألفة وتآلف ورحمة، ثم هى إلى جانب ذلك ملتقى طيب لبناء الإنسان وقضاء المصالح وتكوين الأمة، ووضع السياج المتين لوحدة وتقوى المسلمين. وفى القرآن الحكيم: " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ" (الحج: ٣٤).

ورسالة المساجد تستلزم رعايتها واحترامها، وهو ما فرضه القرآن المجيد بشكل عام، حض فيه فيما حض عليه على العناية بطهارة ونظافة المساجـد، وجعل ذلك أمرا واجبا.. يقول تبارك وتعالى:" يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف: ٣١).

لقد أمر الله عز وجل، بتقديس بيوته ومنع العبث بها أو استغلالها فى غير ما أمر الله بها أن تكون، وقد رأينا فى أحداث السيرة ماذا كان من أمر أصحاب مسجد ضرار وما أرادوه به من تشتيت المسلمين والتفريق بينهم، وفى ذلك يقول القرآن الحكيم: " وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (التوبة: ١٠٧ ــ ١١٠).

والدفاع عن حرمة المساجد، جزء من رسالة الدفاع بعامة، حتى لا يختل الأمن فيها، فيقول سبحانه وتعالى: " الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرُنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " (الحج: ٤٠).

مؤدى ذلك أن المسجد ركن من أركان الأمن المجتمعى، ففى القرآن الكريم " وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا "(آل عمران: ٩٧).. وفيه أيضا: " وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ " (البقرة: ١٢).. لذلك كانت المساجد وبيوت العبادة ملاجئ للخائفين وملاذا يجدون فيها الأمن من الخوف أو الظلم.. ونرى فى السيرة النبوية أن الرسول ﷺ حرص يوم فتح مكة على التأكيد على حرمة مكة حيث البيت الحرام، فيخطب فى الناس قائلا: " إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك دما فيها أو يعضد بها شجرة، فإن أحدا ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له: " إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلّت لى ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب ".. وعما كان قد حدث من خزاعة لقتيل لهم فى الجاهلية، تحدث الرسول عليه السلام فقال: " يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع، لقد قتلتم قتيلا لأدينه، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شـاء مقتله ".

هذه فيما يسجل الباحث، من أهم أخلاقيات الإسلام فى احترام المقدسات، وتقديس الحرمات وعدم الاعتداء عليها أو على الأنفس، ينتقل الباحث من استشراف ما كان من أمرها منذ عهد النبوة، لينعطف على الحاضر، فيسجل أن دور المسجد قد ضعف فى الوقت الحاضر.. فلم تعد ممارسة دور المسجد

فى تربية الأمة كما كانت حين كانت قلوب الناس معلقة بالمساجد التى فيها تقام شعائر الصلوات، ومكان الرياضة فى الإسلام.

وبعد أن يتحدث الباحث عن خطبة الجمعة والدروس فى المساجد، وما تسهم به فى بيان أمور الدين والعقيدة، وبث قيم وأخلاق وشمائل الإسلام الكفيلة بتحصين المجتمع وكفالة أمنه، ينتقل إلى ما يستجد أحيانا من استغلال المساجد فى مسائل ضارة بالمجتمع، كإفساح المجال فيها للجماعات المتطرفة التى تمارس ضغوطها على الشباب والأطفال، وتملأ عقولهم بما يبتعد بهم عن الدين، ويختزل الإسلام فى الثوب القصير أو المظاهر الشكلية، ويشتط فيبث تكفير المجتمع ويوجب قتاله، وتشجيع الشباب على مجافاة التعليم فى المدارس والمعاهد والجامعات بقالة إنها تعلم علوما غربية أو ما لا ينفع.. ومثل هذه الممارسات تأخذ المساجد بعيدا عن رسالتها، وتؤثر بالسلب على أمنها وأمان المجتمع، مع أن المسجد هو مثابة المتدين الملتزم الذى يعرف الله ويتقيه حق تقاته ويراقبه فى أقواله وأعماله وأحواله، وهو ما يعبر عن رسالة المسجد الذى تؤدى العبادة الحقة فيه إلى أمن وأمان المجتمع، فيقر بصلاح أفراده وصلاح أمر مجموعه، وتتحقق السلامة للمجتمع.

إن المسجد هو بيت الله الذى جعله مكانا لعبادته والتقرب إليه، ومداومة الذهاب إليه تجعل الإنسان قريبا من خالقه ومن ثم عبداً ربانيا لا يؤذى ولا يهدد ولا يروع، ولذلك كانت لبيوت العبادة على مدار التاريخ حرمة خاصة تبتعد بها عن أعمال الشر والعنف والقتال.

ومن أسف تآكل الدور الرائع الذى أداه المسجد فى التاريـــخ الإسلامى، وانعكس ذلك على ضعف العقيدة فى قلوب الناس، وجعل البعض يتخذ من أمان المسجد درعاً لمباشرة الشر وترويع المجتمع وتهديد أمنه، بما يخرج بالمساجد عن رسالتها الهادية الآمنة التى ظلت تؤديها لقرون عديدة فى سلام وأمن وطمأنينة.

وهذه الظواهر الضارة التى طرأت، تستوجب من كافة الدول الإسلامية أن تحافظ على الدور الإيجابى الصالح الذى كانت تؤديه المساجد وتقدم فيه دستوراً للأخلاق الفاضلة التى يجب أن تسود بين المسلمين.. وأن خير تصوير لهذا الجانب تراه فى آيات سورة النور بين المسلمين.. حيث يقول الله عز وجل: " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَـاةَ وَارْكَعُو مَـعَ الرَّاكِعِينَ *" (النور: ٣٧ - ٤٣)

إعادة دور المسجد فى حياة الأمة مطلب بالغ الأهمية، يستلزم أداؤه على صورته المثلى الاهتمام المستمر بتثقيف وتدريب الأئمة والوعاظ، وتكريس الفهم الصحيح لرسالة المسجد فى بث الدين الصحيح، وربط النشء والمترددين بعامة على المساجد، بقيم الإسلام وجوهر رسالته التى تكفل صلاح الفرد والجماعة، وأمان المجتمع الذى ظل غاية للإسلام عبر القرون.. نرى بعض ذلك فـيما كتـبه الأستاذ عبد الله بن خالد آل خليفة من البحرين، عن دور الأئمة والمساجد فى معالجة الأمية المتفشية فى بعض الدول الإسلامية، وتراه فيما كتبه الدكتور عبد الستار دربسالى - مفتى قازا قستان، عن دور المساجد فيها قبل وبعد استقلال جمهوريتها، والاهتمام فيها ببث قيم دعم استقرار المجتمع وتكريس مفهوم الوفاق الاجتماعي بين التجمعات العرقية والاجتماعية

أو اللغوية، وترسيخ مفهوم حوار الأديان وتأكيد الجوانب المتكاملة فى الإسلام بشأن العقيدة والعبادات والأخلاق وأهمية الدين فى بناء المجتمع وتكريس التقدم على أسس من الإيمان والعلم والأخلاق. وهو ما دار حوله أيضا بحث الباحث الدكتور سعيد على حمدو الأمين العام للاتحاد الإسلامى للكاميرون، وأضاف إليه بحث الدكتور سالم محمود عبد الجليل رضوان تعميقا لبيان رسالة المساجد فى الحياة وكيف أنها جامعات شعبية ومعاهد تربوية علمية، تساهم إلى جوار بث العلم - فى حفظ وتقوية كيان الأسرة وتعليم أفرادها والمحافظة عليها ورعايتها لتكون لبنة صالحة للإسلام وإسهاما فعالاً فى تماسك وحفظ قيم وأمان المجتمع فى الإسلام.

الوسطية فى الإسلام
ودورها فى كفالة الأمن المجتمعى

استعرضت فى المقالات السابقة، قدر مستطاعى، ما ورد من بحوث فى ملف الأمن المجتمعى للإسلام، والذى بلغت صفحاته (١٢٧٠) صفحة.. وفى اعتقادى أن هذه الجهود المحمودة يحتاج تكاملها إلى حديث رأيت إضافته إلى هذه البحوث عن " الوسطية " فى الإسلام، باعتبارها أحد العوامل الأساسية فى أمان المجتمع وحمايته من الجنوح والتطرف، وعن شجرة " المساواة " التى يتساوى فى رحابها المسلم وغير المسلم، وتقى المجتمع من الاحتقان وفورات الإحساس بالظلم أو القهر أو الدونية، ثم أخيرا قدسية الروح فى الإسلام، وهى أحد الركازات الأساسية التى تحفظ أمان المجتمع وتبث الطمأنينة والسلام بين آحاده ومجموعاته.

والغلو والتطرف هو أخطر ما يهدد أمن المجتمعات، والتطرف إيغال فى البعد عن أواسط الأمور، وهذا من أسف واقع أحوال الناس، ذلك أن أفكار البشر وعقائدهم تجرى كما يجرى سلوكهم على قنوات وفى اتجاهات عدة قد تتطرف إلى أقصى اليمين وقد تنحدر ببعضهم إلى أقصى اليسار فى تيارات تختلف مسمياتها باختلاف تخومها ومعالمها.. يتوسطها الاعتدال نهجا يختطه ذوو البصر والبصيرة ويقبل عليـــه المهتدون والعقلاء.

والتطرف خلل واضح فى اتزان الآدمى، وخلل هذا الاتزان لا يحس به صاحبه فى الأغلب الأعم، إنما يشعر به من حوله ومن يتعاملون معه، فيحتاطون منه ويتحاشونه ما أمكنهم، ويتفادون مبالغته فى التعصب والعداوة والبغضاء والغضب والتصلب وغرابة الحقد، مثلما يتحاشون ولعه بالشدة والانتقام، أو يكرهون ما يبديه من شدة البخل والشح والتقتير على أهله أو

نفسه، أو من كثرة الإسراف والإفراط والإتلاف، أو ما يبالغ فى تأكيده والإصرار عليه من انتحال العظمة والأهمية، أو من ادعاء الجمال أو الكمال أو الغنى أو العلم أو الأصل أو الفصل !

خطـورة هـذا الخلل فى اتزان الآدمى تغدو أكثر أهميةً وخطراً إذا ما أصاب الحاكم والقائد والقاضى والمفكر وأصحاب المهن الحرة، لأن هؤلاء يقومون بخدمات عامة للمجتمع ومؤسساته وتوابعها، وهـم وإن كانـوا يحملـون تبعات ما يقومون به أو يقدمونه وتنعكس عليهم، إلاّ أن الأضرار المترتبة على خلل الاتزان كبيرة أوصغيرة ــ تصب وتقع دائما على الناس كجماعات أو كأفراد !!

والوسطية هى صمام الأمان الحقيقى من كل صور التطرف والغلو، هذه الوسطية سجية من سجايا القرآن الحكيم وفضيلة إسلامية، وقد عاش الإسلام وعاش المجتمع الإسلامى فى أمان لأن الإسلام دين الفطرة والوسطية بلا تطرف ولا غلو ولا مغالاة.. عالج واقع الحياة وواقع الإنسان معالجة واعية متفطنة تستخرج من النفس الإنسانية خير ما فيها وتحاصر سلبياتها القائمة أو المحتملة، وتواجه الواقع بأفضل ما تصلح به الحياة والأحياء.. فى كل زمان ومكان.. والوسطية هى ضابط فكر المسلم وشعوره وسلوكه، فالوسط أو الوسطية هو الاعتدال والقوام بين النقائض أو بين الإفراط والتفريط.. ومن هنا كانت الوسطية سنة محمودة وغاية مرجوة لم تنكر فى شرعة الإسلام إلا فى معرض التزجية والتنويه والثناء.

إن الأمة الإسلامية قد تبوأت مكان الصدارة بين الأمم بدينها الذى اهتدت به وبنص القرآن الذى به شرفت: " كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ " (آل عمران: ١١٠).

هذه الوسطية ما كان لها أن تكون ركيزة للصدارة وسببا لمقام الشهادة على الأمم لولا أثرها كمقوم أساسى فى تكوين الشخصية الإسلامية بهداها

وسوائها وبصيرتها وإنصافها.. وهى الصفات التى تؤهل الأمة لما أعدها القرآن المجيد له وكرمها به.. فقد دلنا القرآن الحكيم على أن التوسط هو قوام الفضائل كلها من عقائد وعبادات ومعاملات.. وخصلة أصيلة من خصال المسلم، وإطار حميد فى مسائل العبادة والأخلاق والشعور والسلوك.

وفى القصد والاعتدال فى الشعور: " لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ " (الحديد: ٢٣)

وفى صفة عباد الرحمن المتوسطين فى انفاقهم بين السرف والتقتير: " وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا "(الفرقان: ٦٧)

إن " الوسطية " كمنهاج زكاه القرآن الحكيم وحث عليه المصطفى ﷺ ليست حجرا على العقول ولا هى غلق للاجتهاد أو دعوة للجمود، وإنما هى معيار موضوعى.. منار المؤمن فيه القرآن والسنة، وهما فيما أوصيا به لم يغلقا بابا للرأى أو بابا للاجتهاد ما داما فى إطارهما الصحيح الذى تمثل الوسطية سمة أساسية من سماته..

وإذ كان الرأى والاجتهاد مندوبا إليهما، فإن الوسطية حصن المؤمن فيما يراه وفيما يسلكه.. يقول المصطفى ﷺ: " خير الأمور أوساطها "، ويقول الإمام على وكان نجيبا فى مدرسة النبوة: " اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هى الجادة عليها باقى الكتاب وآثار النبوة ومنها منفذ السنة وإليها مصير العاقبة هلك من ادعى وخاب من افترى ".

الوسطية ونبذ الغلو والتطرف ملمح رئيسى وأساسى من ملامح الإسلام، وسر من أسرار قدرته على احتواء كافة التيارات.

الوسطية، تمثل العدسة أو البوصلة التى تضبط فكر المسلم وخلقه وشعوره وسلوكه.. ومسئوليته أيضا.. ولم تذكر الوسطية فى شرعة الإسلام إلاّ فى معرض التزجية والتنويه والثناء.. من مقامها المحمود أن وصفت بها الأمة الإسلامية ذاتها.. " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس

ويكون الرسول عليكم شهيدا " (البقرة: ١٤٣) صدرت فلسفة الإسلام عن هذه الوسطية.. فى التنسك والعبادة..

"حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين" (البقرة:٢٣٨).

والمطالع للقرآن الكريم يلمح هذه الحفاوة بالوسطية فى ما زكى إليه من خصال وسجايا وأخلاق.. فالكرم وسط بين الشح والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والتواضع وسط بين الكبر والمذلة أو الاستخذاء، والحياء وسط بين الخور والوقاحة، والحلم وسط بين الطيش والقعود، والعدل وسط بين الظلم والمحاباة، والرفق وسط بين العنف والإضاعة. الوسطية فى الإسلام منهاج يجمع الشمائل بلا تفريط ولا مغالاة.. الغلو نفسه آفة مرفوضة.. يحذر منها رسول القرآن فيقول: " إن هذا الدين متين ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه. فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى " الوسطية سجية محمودة.." " خير الأمور أوساطها ."

عناية الإسلام
بضبط السلوك الإنسانى*

مع عناية الإسلام بضبط السلوك الإنسانى، لم يعن بجانب ويهمل سواه.. واجه الواقع فى توازن لافت قوامه سجية الوسطية.. لم يتجاهل أن الإنسان روح وجسد، وأن لكل منهما وجوده ومطالبه.. لم يتجاهل الإسلام الجانب الجسدى أو الحسى فى الآدمى، ولم ينكر الرغبات، ولم يلغها، وإنما دعا إلى ضبطها.. ووافق فى تناسق وتوازن رائع بين المتقابلات.. بين الروح والجسد.. بين الفرد والمجتمع.. أشبع النفس البشرية وأعطاها حاجتها الروحية والمادية. عقيدة الإسلام ترتكز على المادة والروح معاً.. للمادية حقائقها. وللروح السمو والقيادة وضبط الرغبات المادية.. لابأس ولا إنكار ولا مصادرة على الرغـبات والمطالب، ولكنها محاطة بسياج من الضوابط والأخلاق بقيادة العقل والروح حتى لايتحول الآدمى عبداً للشهوات والحسيات فيفقد معنى وجوده. هذا الآدمى الذى يلتقى فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، فرد فى مجتمع.. للمجتمع حقوقه وللجماعة أولويتها وريادتها، ولكن الفرد فرد بذاته، له ذاتيته وعقله وفهمه ووعيه ومسئول عما يختار وعما يفعل.. ليس إمعة يندفع بلا وعى مع التيار أو يساير الركب بلا فهم.. الإنسان أمام الله هو المخلوق المسئول.. يقول عنه رسول القرآن: " لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ".

المسلم السوى، مدين للإسلام بوجوده الروحى وبوجوده المادى، ومدين له

---

* للتفصيل ــ رجائى عطية ــ عالمية الإسلام ــ ط ٢٠٠٣ ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر

أيضا فيما حفظه له من توازن بين وجوده الروحى ووجوده المادى، فمن وسطية الإسلام أنه وهو يفتح للمسلم أبواب الحياة الروحية حرم عليه أن يوصد بيديه أبواب الحياة الجسدية، كما نهاه أن يترك العمل لينقطع عن الدنيا وينسى نصيبه منها.. فى القرآن المجيد: " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (القصص: ٧٧)." يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ " (المائدة: ٨٧). الحياة الروحية فى الإسلام تجرى على سنن القصد الصالح للحياة البشرية، لا استغراق فى الجسد ولا انقطاع عنه فى سبيل الآخرة، وإنما قوام بين هذا وذاك.

الدين يخاطب القادر وغير القادر، القوى والضعيف، والصحيح والمريض.. وضع الإسلام القواعد، وسن الأحكام، ولم ينس الرخص.. بل وحرص رسول القرآن أن يقول للناس: " فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه " يخرج إلى صحابته فرحاً مستبشراً يزف إليهم مانزل من سورة الشرح: "فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً .." يقول عليه السلام لهم:" أبشروا فلن يغلب عسر يسرين .." سن لهم القرآن القواعد والأحكام والحدود، ويدرأ فى نفس الوقت الحد بالشبهة بل ويقيم من حالة الضرورة عذراً عاماً يقيل الآدمى من تقصيره.. بل من خطيئته.." فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (البقرة: ١٧٣)" فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (المائدة: ٣)" فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)." الأنعام:١٤٥.. (" فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (النحل: ١١٥).. وفى الحديث: " الضرورات تبيح المحظورات ".. بهذه الوسطية، البعيدة عن التفريط أوالإعنات.. جعل صيام رمضان فريضة وركنا من أركان الدين، ولكن أبيح الإفطار للمريض والمسافر وجعلت الفدية للذين لا يطيقونه إلاّ بمشقة بالغة.. فالقرآن الذى قال: -" كتب عليكم الصيام " (البقرة:١٨٣) ــ هو هو للذى قال: فَمَن كَانَ مِنكُم

مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ " (البقرة :١٨٤) والقرآن الذى فرض الحج فريضة وركنا من أركان الإسلام لمن إستطاع إليه سبيلاً.." وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ "(آل عمران: ٩٧)..هو القرآن الذى يسر على الحجيج، فقال: " فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ." (البقرة: ١٩٦)

والقرآن الذى جعل الفدية مقابل الرخصة فى الصوم والحج، والذى قبل الكفارة فى الظهار والحلف واللعان والصيد فى الحرم ـ تيسيراً على الناس. (المائدة: ٨٩-٩٥)، (الأحزاب: ٤)، (المجادلة: ٢-٤) ، (النور:٣ ـ٢٥) إن القرآن الذى وضع المبادئ ورسم الحدود، هو هو الذى قال: " يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ " (البقرة: ١٨٥) " لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا." (الطلاق: ٧) ويقول صفى السماء، الرحمة المهداة:" إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه، فسددوا وقاربوا ".

أراد الله تعالى بوسطية الإسلام.. الدين العالمى، أن يهدى الناس إلى خير ما تصلح به حياتهم، أن يرفع عنهم الحرج.." وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ "(الحج: ٧٨) مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ " (المائدة: ٦).. بهذه الوسطية والاعتدال، اتسعت دوحة الإسلام لتستخرج أفضل ما لدى القادرين والأصحاء والأقوياء والأغنياء وذوى العزم من استقامة وصلاح وعبادة وعطاء للإسلام وللمسلمين وللحياة، واتسعت هذه الدوحة أيضاً لتفسح للمرضى والطاعنين والضعفاء وغير القادرين والفقراء، ولتسد عجزهم أو قصورهم أو ضعفهم أو مرضهم برخص أباحها بل وأحبها

الله الذى أعلمهم نبيه المصطفى أنه تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه دون أن ينسلخ المسلم المرخص له عن واحة الدين أو ينغلق أمامه باب الرجاء فى اتساع رحمة السماء التى تجبر عجز العاجز ومرض المريض وشيخوخة الطاعن فى السن وتفسح لكل من صدق إيمانه وصح إخلاصه.. أليس واسع الرحمة ــ جل شأنه يقول فى قرآنه المجيد:" وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ" (البينة: ٥)

هذه الواحة الإسلامية، لهذا الدين العالمى، لا تصد ولا تغلق أبوابها أمام كل راغب فى الهداية حتى وإن طالت لجاجته واشتد عناده.. بل إنها تحمى المستجير الكافر حتى يسمع كلام الله وتبلغه مأمنه.. "وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ" (التوبة: ٦).. كفرهم وإشراكهم دال على جهلهم وانعدام علمهم، فإذا علموا كان العلم كفيلاً بجذبهم إلى واحة الإيمان.. لذلك لا ييأس الإسلام قط من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تتوقف دعوته قط عن" المجادلة بالتى هى أحسن ".. ولا تنسلخ بتاتاً من سعيها الدائم الرفيق إلى البيان والإقناع وهداية العقل والفؤاد والوجدان والضمير إلى الله الواحد رب العالمين.. لم ينتشر الإسلام هذا الانتشار الفسيح الذى عم الدنيا بعنف ولا بغلو ولا بقسر ولا بإكراه ولا بإجبار ولا بإرغام، وإنما انتشر الإسلام بوسطيته، وبالبيان والإقناع وبالرضا والتصديق والإيمان، وبهذه الروح الحية التى تكفل أمان الجميع فى المجتمع الإسلامى مستظلين بمظلة وارفة شاملة الحياة وجميع الأحياء إلى يوم الدين.

المســـاواة
والأمن المجتمعى فى الإسلام*

يعرف المتابع لأحوال المجتمعات أن معظم القلاقل والملمات والأزمات ترجع إلى فقدان إحساس الفرد بالمساواة، وضيقه من اختلال الموازين، وغلبة الحكام الأغنياء والأقوياء على المحكومين والفقراء والضعفاء.

من عظمة الإسلام، وضمان مقومات أمن مجتمعه، أنه إلتفت إلى أن تنوع الخلق لا حدود له، وتفاوتهم - من ثم - تفاوت واقع حادث لا حد لأشكاله ولا إيقاف لسننه.. خطاب الدعوة العالمية يتجه إلى معمورات وحضارات، وإلى فيافٍ وصحارٍ وقفارٍ.. إلى بقاع باردة، وأخرى حارة.. إلى أراض غنية، وأخرى بلقع.. يتجه إلى الذكور، وإلى الإناث.. إلى الشيوخ والكهول، وإلى الشباب والأطفال.. إلى المرضى وإلى الأصحاء،.. إلى الفقراء وإلى الأغنياء.. إلى الضعفاء وإلى الأقوياء، وتفاوت هؤلاء وأولاء حقيقة كونية، فكيف تكون بينهم" مساواة "، وكيف يلتئم هؤلاء جميعاً رغم هذه الاختلافات الهائلة والتفاوت الحتمى: الخلقى، والمكتسب -.. كيف يلتئمون جميعاً فى شجرة واحـــدة عمودها" المساواة" ؟!

عبقرية الإسلام، أن مبادئه تحل هذه المعضلة، فتتعامل مع واقع الاختلاف والتفاوت، ولا تنزع عن الآدمى - فى الوقت نفسه - إحساسه بالانتماء، وعلـــى قدم المساواة، إلى هذه الشجرة الإنـــسانية التـــى عمادهـــا الإخـــاء والحريـــة والمساواة !

---

* عن كتاب عالمية الإسلام ــ رجائى عطية ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ــ ط ٢٠٠٣

الآدمى ليس نسخة مكررة من باقى الآدميين، إنما يختلف بالضرورة عنهم ويختلفون عنه، يتفاوت وإياهم، ويتفاوتون وإياه على قدر حظ كل فرد من" المواهب" الخِلقيّة (بكسر الخاء) - أو من المزايا المكتسبة بالتعلم والدراسة والخبرة والاجتهاد. من المحال أن يكون الآدميون جميعاً نسخاً كربونية متماثلة، فالتنوع حتمى فضلاً عن أنه ضرورى لتدافع الحياة وتقاسم الأدوار فيها.. فكيف يمكن أن تتحقق المساواة بين غير المتساوين ؟!

وكيف يمكن أن تجرى سنن الأحياء، وتستقيم حوافز الناس ودوافعهم وبواعثهم إذا تساوى العالم والجاهل، والنشط والقاعد، العامل والكسلان، المجاهد والمتخاذل، الجاد والهازل، الساعى والخامل ؟!!

ثم كيف تكون " المساواة " - الشجرة الباسقة التى أرادها الإسلام بعالمية دعوته، لهؤلاء الناس جميعا على اختلافاتهم التى لا تبديل لسننها !!

لا يمكن لديانة سماوية أن تغفل الواقع وتتجاهله، ثم إن هذا الإنكار للواقع لن يؤدى إلى نتيجة مرجوّة، ويحمل فى ذاته معاول هدمه.. الناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - بالعلم والفضيلة، فلم ينكر القرآن الحكيم ذلك فقال:" هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (الزمر: ٩) " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ " (المجادلة:١١)..

والناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - فى العمل والكد والبذل والعطاء، فلم يشح القرآن المجيد عن ذلك، وقال: "أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ". (الأنفال: ٤).." ولكل درجات مما عملوا "(الأحقاف:١٩، (الأنعام: ١٣٢).. والناس متفاوتون - ولابد أن يتفاوتوا - فى الجهاد، فلم يتجاهل القرآن الكريم ذلك وقال:" لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ". (النساء: ٩٥).. والناس

متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا - فى أنصبتهم من الرزق وأسباب المعيشة.. وفى القرآن الحكيم: " نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ " (الزخرف: ٣٢)..

بيد أن هذا التفاوت الذى يشير إليه القرآن المجيد، لا يترتب عليه الموافقة على إقامة الحقوق والواجبات على أساس التمييز، أو تصنيف الناس إلى طبقات !.. فأنت تلحظ أن القرآن المجيد لم يستخدم بتاتا لفظ " طبقة " أو "طبقات " - وإنما حرص على أن يحدد العبارة فى لفظ " درجة " أو " درجات ".. فلا طبقات فى الإسلام، ولا تمايز فى الإسلام بين طبقة وأخرى، أو بين عرق وأعراق أو بين جنس وأجناس، أو بين عصبيات، أو بين أغنياء وفقراء، أو بين أقوياء وضعفاء.. وإنما هى شجرة واحدة، لأسرة واحدة، يجمعها رباط واحد، لا فرق فيه بين إنسان وإنسان، و.. " إنما المؤمنون إخوة ".

وليس أجزى للإنسان، وأمان مجتمعه، من دين يطوى الناس فى أسرة إنسانية واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلاّ بالعمل والتقوى، لا بالحسب ولا بالنسب ولا بالأعراق ولا بالأموال.. الإسلام أقر بوجود التنوع والاختلاف والتفاوت، وأعطى فى الوقت نفسه للمساواة حقها.. فى خطاب القرآن الحكيم إلى الناس كافة، لا إلى المسلمين خاصة، يقول الحق سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات: ١٣)..

هذه الآية الجامعة، تلفت الأنظار إلى أصل الإنسانية الواحد، وهو حجر الزاوية الأول فى مبدأ المساواة بين الناس، وهو أن الناس جميعاً ينتمون إلى أصل واحد.." يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا " (النساء:١).. "وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة " (الأنعام: ٨٩).. "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا" (الأعراف: ١٨٩).. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد،

تتهدم به دعاوى العنصرية والعصبيات، وينفسح الطريق ممهداً واسعاً على مصراعيه للأخوّة الإنسانية التى لفت القرآن الأنظار إليها بين الناس جميعاً.. هذه الأخوّة، عماد المساواة، تسلس إلى الركاز الثانى فى مبدأ المساواة.. هذا الركاز ينصب فى مناط المفاضلة التى لا تكون إلاّ بالتقوى والعمل الصالح، لا بالأعراق والأحساب والأنساب (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) - حين ترتد المفاضلة إلى هذا الميزان فإنها تجمع بين العدل وبين الحكمة جميعاً، فلا تخذل النشط العالم الساعى المجاهد التقىّ الورع، ولا تغلق فى الوقت نفسه أبواب الرجاء أمام غيره وإنما تبقـــى الباب مفتوحاً - وفى إطار الأخوّة التى تحدث عنها القرآن - لارتياد سبل التنافس والتبارى على نول المكانة التى معيارها الوحيد "التقوى والعمل الصالح ".." وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" (المطففين: ٢٦)..

عظمة وحكمة " المساواة " فى الإسلام أنها لا تبطل سنن الحياة، ولا تبطل سباق الأحياء فى صوالح الأعمال.. فلن ينقطع سباق الحياة بين الناس، مثلما لم ولن ينقطع التفـاوت بينهـــم.. ولا معنى للتفاوت ولا للمساواة إذا تساوى القادر والعاجز، وتساوى العامل والخامل، وتساوى النشط والكسلان وأصبح الكسلان يكسل ويقعد ولا يخاف على وجوده، والعامل يعمل ويكد ويتعب ولا يأمل أو يطمح فى أفضلية أو رجحان.. لذلك فإن المتابع للفلسفة القرآنيـة يرى أن تقرير " الأخوة " و " المساواة "الإنسانية لم يمنع من التفاضل بين الناس، بيد أن هذا التفاضل لا يرتد إلـى منصب أو جـاه أو سلطان أو عصبية أو أعراق أو قوة أو بطش أو جبروت، وإنما مناطه الوحيد هو" العمـل الصالح ".

أدلة معيار المفاضلة، وانحصارها فى " العمل " لا فى العرق أو النسب أو الجاه أو السلطان، أدلة متعددة أيضا فى السنة المحمدية.. معيار المفاضلة بين الناس إنما هو فى أعمالهم لا فـــى " أنسابهم ".. وفى الحديث:" ليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على

أحمر - فضل إلاّ بالتقوى" -.. يتحدث النبى عليه السلام إلى قومـــه بنى هاشم . فيقول لهم: " يابنى هاشم لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب. إن أكـــرمكم عند الله أتقاكم ".

معيار " العمل " كمناط للمفاضلة، وبث حوافز الحياة، ودفع حركتها - يتماس معه أيضـــا ما يكون مرده إلى اختلاف الأحوال أو الظروف فيحسبه البعض دالاً على عدم مساواة فى الإسلام، بينما هو لب وجوهر" المساواة" التى يتوجب عليها أن تدخل فى موازينها هذه الفروق الناجمة عن اختلاف الظروف والأحوال لترد الجميع إلى " المساواة " التى منبعها " الأخوّة" الإنسانية وتساند وتكافل الناس. إن الفاهم المدرك لمبدأ المساواة فى الإسلام، سوف يدرك أن الإسلام قفز بالبشرية كلها إلى الأمام إعلاءً لهذا المبدأ، وسوف يفهم أنه سبق الشرائع جميعاً فى تقرير المساواة بين المرأة والرجل، وسيفهم أن" قوامة " الرجل المقررة فى القرآن ليس مردها إلى تفرقة وتمييز، وإنما إلى تقسيم واجبات وأعباء، وتقنين لما تستقيم به أحوال وشئون الأسرة.. من يتأمل معنى وغاية الحديث النبوى:"الضعيف أمير الركب "سوف يدرك أنه ليس تمييزاً لضعيف وإنما هو تقرير لواجب الأصحاء أو الأقوياء فى رعاية الضعفاء.. فليس يستوى الضعيف والقوى فى الركب، القوى قادر بينما الضعيف لا يقدر، لذلك كانت "المساواة" تعنى لـــدى الإســـلام أن يكون الضعيف هو أمير الركب، ليَجْبر الصحيح القوى - ضعف المريض أو الضعيف، ولتكون " المساواة " المقصودة المرعية هى التى ترد الناس إلى " الأخوّة الإنسانية " فى صورتها الرفيعة السامقة !

"القدرة" فى شرعة الإسلام، تكاليفها ثقيلة، وأعباؤها جسيمة، لذلك فإن الإسلام حين يفرض واجبات أو قوامة أو أعباء أو مهام على القادر، إنما يفرضها رعايةً لمبدأ المساواة وتحقيقاً له فى صورته السامية لإعادة السواء - بروح الأخوة الإنسانية - لما ينبغى أن يكون بين الناس، وهذا المَعْلم الإسلامى، هو من أهم خصائص عالميته وأمان مجتمعه فى إطار يفهم منه الناس جميعاً

على اختلاف خلقتهم ومواهبهم وحظوظهم وملكاتهم وقدراتهم وعلمهم وفهمهم وطاقتهم - أنهم سواء فى واحة الإسلام، لا فرق بين غنى وفقير، ولا قوى وضعيف، ولا تفاضل بالأعراق، ولا بالأحساب والأنساب ومنازل الآباء، وإنما كل بقدر عمله وبذله، فإن قعد به عجز، أو مرض، أو ضعـف، أو غير ذلك، تداركته المساواة الإسلامية بروح الأخوة الإنسانية التى تبذل له ما يعينه على مرضه أو ضعفه أو عجزه أو غير ذلك من العوارض !

هذه المساواة الإسلامية، فى شجرتها الباسقة، لم تقف فقط عند المعانى والمقاصد التى تتوقف عندها دساتير اليوم، وإنما جاوزتها إلى ما يلحق بها كـل مسانـدة أو عون أو جبـر أو كفكفة عن مريـض أو ضعيف أو عاجز، ولتلحق الجميع بالمجتمع الإسلامى - فى دوحة آمنة يتساند الكل فى ظلها بأخوّة وتكافل ومساواة وتحاب وسلام.. هذه الأخوّة الإنسانية التى عبر عنها نبى القرآن بقوله: " من آذى ذمّيا فأنا خصمه يوم القيامة ".. هذه الأخوّة التى تنتمى إليهـا المساواة التى لا مفاضلة فى رحابها إلاّ بالتقوى وصالحات الأعمال.. الكل أمام القانون وأمام القضاء سواء، والكل فى الأعبـاء العامة وفى الضرائب سواء، والكل فى تولى الوظائف العامة وفى العطاء سواء، والكل فى الخدمة العسكرية سواء !

شجرة الحقوق والمساواة فى الإسلام

شجرة حقوق الإنسان فى الإسلام، تقوم كما رأينا على جناحين. الأول: مبدأ المساواة، والثانى: وحدة الأصل البشرى.. لم يعبر كتاب من كتب الأديان عن وحدة الأصل - مدخل المساواة ــ كما عبر عنه القرآن المجيد، ولا اعتبر الناس إخوة فى أسرة إنسانية كبيرة كما اعتبرهم القرآن الحكيم. لذلك لم تمس الاختلافات بين البشر، وهذه سنة كونية، ما بينهم من أخوة وانتماء إنسانى تذوب فى أخوته الإنسانية الشاملة كل فوارق.. الإنسان الفرد، أمام الإسلام، قيمة فى ذاته لا ينتهكها استعلاء ولا تجبر ولا مال ولا هيلمان.. الكل سواء أمام الله، وأمام القانون.. من حرص الإسلام على هذه المساواة، ورفضه الطبقية بشتى صورها وأشكالها، أنه لم يجعل للدين أو رجاله طبقة، ولم يقبل أن يكون لهم طبقة.. فلا كهانة فى الإسلام، ولا واسطة بين العبد وربه.. باب السماء مفتوح لكل إنسان بلا كاهن ولا حبر إلاّ اتجاهه إلى الله تعالى بإخلاص وقلب منيب.. إن أعياه التعرف على شىء، فأمامه أهل الذكر والعلم، يلجأ إليهم - بلا كهانة - ويتلمس لديهم ما قصر عنه علمه أو فهمه.. فالقرآن المجيد يقول: " فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ". (النحل: ٤٣).. فلا مصادرة على المؤمن فى النظر والتأمل والتفكر، ولا سلطان عليه غير سلطان العقل والنظر الصحيح والموعظة الحسنة.. فضيلة أهل العلم ليست فضيلة طبقة ولا سلطة، وإنما فضيلة اتساع علم وقدرة على البيان والتوضيح والإرشاد والموعظة الحسنة..

المساواة أمام القانون، فرع على هذه الشجرة الوارفة التى يتساوى فيها أفراد الأسرة الإنسانية، يعبر عنها نبى القرآن عليه السلام فى حديث بالغ

الدلالة، محدد العبارة، قاطع الحكم، يمتد بصريح عبارته إلى الناس كافة لا إلى المسلمين خاصة.. يقول عليه الصلاة والسلام:" الناس متساوون كأسنان المشط ".. فى دوحة القرآن لا تحل الكلمات محل الأعمال، فلا قيمة لكلام مزخرف لا يقابله واقع حاصل مطبق.. فى القرآن الحكيم: "كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ". (الصف: ٣).. من يراجع السيرة المحمدية، وسيرة الراشدين، يرى صورة مثلى لمصادقة الأفعال والأعمال للأقوال.. فى مرضه الأخير، خرج النبى صلى الله عليه وسلم متحاملاً على نفسه إلى المسجد ليقول للناس: "يا أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فيأخذ منه. ولا يخشى الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى، ألا إن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقاً إن كان له أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس ".. وهو هو - عليه السلام - الذى رفض غاضباً وساطة حبه أسامة بن زيد لإعفاء فاطمة المخزومية القرشية من حد السرقة، وقال للناس:" إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد" !!

ولا يستبعد الإسلام من واحة المساواة أهل الذمّة الذين يقيمون فى دار الإسلام.. فهم أحرار فى عقائدهم وفى إقامة شعائرهم وفى ممارسة نشاطهم وفى ولاية الوظائف، ولهم أيضا نصيبهم فى بيت المال، ويتمتعون بمظلته التى تقيهم العوز والحاجة. روى عن الفاروق عمر عليه الرضوان أنه صادف شيخاً يهوديا ضريرا يتكفف الناس، فأخذه بيده إلى بيت المال يقول لعامله عليه:" انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ! ".

إحساس الناس، فى واحة الإسلام، بأنهم متساوون أمام القانون، نابع من منظومة قرآنية تعاضدها السنة النبوية، ونابع أيضا من تطبيقات متتالية كرست لدى الناس أنهم أمام القانون سواء، وأن هذا هو حقهم جميعاً فى الإسلام

الذى لا يجامل فى هذه المساواة أحداً مهما بلغت مكانته أو اشتدت عزوته أو ثارت خشية أو مخاوف من معاداته للإسلام أو نكوصه عنه.

يساوى المجتمع الإسلامى بين الناس فى تولى الوظائف العامة، لا يميز أحدا لنسبه أو لعرقه أو لحسبه أو لماله، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم من المحاباة فى اختيار الولاة وأرباب الخدمة العامة، فيقـول: " من ولى أحداً محاباة فقد خان الله ورسوله وجماعـة المؤمنين ". لا إيثار لأحد لجنسه ولا لماله أو جاهه أو مكانته أو عزوته !

هذه المساواة فى تولى الوظائف العامة تنطلق من المبدأ العام لمعنى المساواة فى الإسلام.. ليس معناها أن يُقدم الجاهل على العالم فى ولاية الوظائف، ولا أن يُقدم الفاسد على الصالح، فولاية الوظائف أمانة، والاختيار لها يخضع ويجب أن يخضع لمعايير ضمانا لحقوق الناس الذين تبذل الوظائف العامة من أجل رعاية مصالحهم.. وفـى القرآن الحكيم:" إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ" - ويقول أهل الفقه والنظر إن كل ولاية بحسبها، فإن كانت الوظيفة للمال قدمت الأمانة، وإن كانت لقيادة الجيوش قدمت القوة.. وفى جميع الأحوال فإن الاختيار أمانة للصالح العام.. من أجل ذلك لم يتحرج رسول القرآن عليه السلام من أن يقول لأبى ذر الغفارى على حبه وإيثاره له حين طلب ولاية:"يا أبا ذر إن بك ضعفا، وإنها أمانة، وإنه يوم القيامة خزى وندامة - إلاّ لمن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيهـا ".

هى إذن ليست مساواة حسابية وإنما مساواة قانونية لا تفرق بين الناس لجنس أو حسب أو لون أو جاه، وتختار الأصلح بغض النظر عن أى اعتبار من هذه الاعتبارات.

وصاحب الوظيفة ذاته، لايتميز على الناس، ولا يفضلهم بشىء، حتى وإن كان أميرا عامـا للمؤمنين.. يسمع الناس فى الإسلام، أبا بكر الصديق يقول للناس يوم ولوه الخلافة: " لقد وليـت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت

فأعينونى ! وإن أسأت فقومونى ".. ومن بعده سمع الناس للفاروق رضى الله عنه يقول لهم: " إنما أمير المؤمنين رجل منكم ولكنه أثقلكم حملا ".. فهم هؤلاء من إمام مدرسة النبوة صلى الله عليه وسلم أن ولاية الوظائف العامة واجب وحمل وتكليف وليست تسلطاً، وأن قوامها العدل والحق والمساواة، وليس السيف أو السوط أو هــوان عباد الله !

هذه المساواة الإسلامية، امتدت إلى كل المظاهر فى الحقوق والواجبات.. فى العطاء، وفى واجب الجهاد أو ما يصطلح الآن على تسميته بالخدمة العسكرية، وفى الضرائب، وفى نصيب الناس من حمل أعباء الجماعة، وفى حق كل منهم فى بيت المال.. لا تميز السياسة العامة للمال فى الإسلام بين الأفراد فيما يستحقون وفيما يأخذون كل بحسب عطائه وبحسب نصيبه ،لا يُمنح أحد ويُحرم آخر، ولايفرق بين ذكر وأنثى، أو بين مسلم وذمّى.

النبع المستقى منه هذا وغيره من أحكام المساواة، يرجع إلى واحة ظليلة وارفة، وضعها القرآن المجيد، ونهض عليها الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم.. يأبى عليه السلام علــى الناس أن يعظمــوه، ويقول لهــم: " لا تقوموا لى كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا "." إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس ".. يقول حانيا رفيقاً لمــن أخذتــه الرعــدة مـــن هيــبته: " هــون عليك يا أخى، فإنى لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة كــانت تأكل القديد فى مكة ".. يجالس عليه السلام أصحابه من العبيد والفقراء والمساكين، يحنو عليهم ويؤاكلهم ويعود مرضاهم ويرفض دعــوة قريش للتعالى عليهم.. يخصف نعله بيده، ويكنس بيته، ويحلب شاته، ويعقل بعيره، ويؤاكل خادمه أنس بن مالك، ويرفض أن يتميز على أصحابه.. يسبقهم فى حفر الخندق ونقل الأحجار فى غزوة الأحزاب حتى عفر التراب جبينه، ويسبقهم إلى تحضير الطعام ولا يأنف من جمع الحطب والوقود، ويأبى دعوة أصحابه إليه أن يحلوا محله، ويقول لهم:" أعلم أنكم تكفونى، ولكن الله يكره من العبد أن يكون متميزاً على أصحابه ".. يسبق صحابته إلى مواطن

الخطر فى الجهاد، حتى قال على بن أبى طالب نجيب مدرسة النبوة: " إنا كنا إذا اشتد البأس، وحمى الوطيس، واحمرت الحدق، احتمينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلـــى العدو منه ".. فى بناء المسجد بالمدينة يراه المسلمون يده مع أيديهم فى البناء، يجمع ويحمل معهم الأحجار من هنا وهناك، ويشاهده أحد المسلمين عارضاً لبنةً على بطنه، ويظن أنها شقت عليه، فيطير إليه يقول لـــه: يا رسول الله ناولنيها.. بيد أنه صلى الله عليه وسلم يأبى عليـــه ويجيبه: " خذ غيرها، لا عيش إلاّ عيش الآخرة "، فلما ألحّ عليه، قال له عليه السلام" اذهب فاحتمل غيرها فإنك لست بأفقر إلى الله منّى ! ".

هذه الواحة الوارفة للمساواة فى الإسلام، معلم أساسى من معالم عالميته التى تتسع للناس جميعاً على امتداد المكان والزمان !، وركيزة أساسية لأمان المجتمع الإسلامى الذى يحس فيه الفرد بانتمائه إلى المجموع بغير تمييز ولا محاباة ولا تفاضل ولا تظالم، وإنما قـــوام التقدير: " التقوى والعمل الصالح ".

الأديان المتجهة إلى أقوام، أديان مغلقة، لاتعطى للآدمى ما يعطيه الإسلام من إحساس عميق بآدميته وبانتمائه والناس طراً إلى أصل واحد، وانضواؤه وإياهم فى أسرة واحدة - لا يتمايز فيها أحد بجنسه أو عرقه أو لونه أو حسبه أو نسبه أو عملـــه أو منصبـــه أو جاهـــه أو ماله أو ثرائه.. هذه" المساواة " هى رسالة الإسلام إلى الدنيا وإلى الناس كافة، أنهم فى ظل دوحته الوارفة، يلتئمـــون جميعاً فى شجرة واحدة عمودها وأمانها المساواة، وأنهم فى رحاب هذا الدين العالمى ينتمون إلى شجرة الإنسانية التى يتساوى فيها الجميع فى رحاب الله وفى إطار دعوته العالمية إلى الناس كافة وعمادها الإخاء والحرية والمساواة !

قدسية الروح
والأمن المجتمعى فى الإسلام *

تصب جميع المبادئ وآليات الأمان المجتمعى التى يحرص عليها الإسلام، فى أمان الإنسان على روحه ونفسه وبدنه وعرضه وماله، فهذا الأمان، هو غاية المبادئ والقواعد والأحكام والآليات.. يأتى فى المقدمة أمان الإنسان على روحه، فالروح هى الأصل والأساس، لذلك لابد لكمال الحديث عن الأمن المجتمعى، من بيان منابع وأسس قدسية الروح فى الإسلام.

تقديس الإسلام للروح الإنسانية، هو فرع على تكريمه للإنسان، ومعلم أساسى من معالم عالميته وأمان مجتمعه.. لا يطلب الآدمى من الدين أكثر من أن تكون روحه فيه - وروح سواه - روحاً عزيزة مقدسة محل احترام ورعاية وحماية.." الحياة" فى الإسلام هى هبة الخالق البارئ جل شأنه.. وهى نفحته للإنسان الذى كرمه سبحانه وتعالى واجتباه وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً ... فى القرآن المجيد: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ".. (الإسراء: ٧٠).. هذه الروح التى خلقها الله، أمرها بيد الله، لا يجوز لغير الله أن يعترض وجودها أو يجهضها أو يمسها أو ينهيها.. فى الإسلام، روح الآدمى - أى آدمى مهما كان عرقه أو ديانته - هى روح الناس جميعاً.. إجهاضها هو إجهاض للحياة، وإزهاقها هو اعتداء على الحياة الإنسانية التى أوجدها الله ولا موجد ولا منهى لها سواه.. من هنا، نوه القرآن الحكيم إلى أن القتل ليس حسبه أنه عدوان على حياة المقتول وكفى، وليس إزهاقاً

---

* عن كتاب عالمية الإسلام ــ رجائى عطية ــ مركز الأهرام للترجمة والنشر ــ ط٢٠٠٣

لروح أزهقت بغير حق وكفى، وإنما هو اعتداء على الحياة الإنسانية كلها !!!.. ومن يحترم الروح الإنسانية، ولا يمسها، ولا يزهق الحياة فيها، فكأنه أحيا الناس جميعاً.. فى القرآن المجيد يقول رب العزة:" أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ".. (المائدة: ٣٢).

هذه الحياة - المنحة الربانية - المقدسة، محوطة برعاية وحماية محكمة فى الإسلام.. إزهاق الروح - أى روح - من أكبر الكبائر فى الإسلام، ومن أبشع الجرائم فى شريعة الله.. فرض الله تعالى لها قصاصاً يرهب ويثنى الناس عن استباحتها أو الاستهانة بحرمتها.. يقول الحكم العدل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى" (البقرة: ١٧٨).. القصاص لغة يعنى المساواة، أى أن الجزاء من جنس العمل أو الجرم.. القصاص تتبع للجانى بالجزاء العادل، وللمجنى عليه أو ذويه بالشفاء.. القصاص عدالة.. وجزاء وفاق للجريمة، فالقتل اعتداء متعمد أزهق روحاً خلقها الله، فتكون العدالة أن يؤخذ الجانى القاتل بمثل فعله !! هذا القصاص لم يفرض للنكاية أو الانتقام، وإنما عقاباً عادلاً ورادعاً، حكيماً واعياً، وأحكم ما فيه ونبه إليه القرآن المجيد أنه فى واقعه سبيل للحياة، لأنه حماية لها - بالردع والجزاء - من تغول المتغولين وعدوان المستهينين بالحرمات الإنسانية وبأرواح عباد الله.. فى القرآن المجيد:.." وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة: ١٧٩).. الردع فى العقاب يجرى على محورين، ردع خاص يتجه إلى الجانى الذى أخطأ وتعدى على حقوق أو حيوات الناس، والردع العام الذى يحذر الناس.. كل الناس من مغبة الجريمة والاعتبار بأن الجانى الملاحق بعقاب الدنيا والسلطة الحاكمة، ملاحق أيضاً بعقاب السماء.. قد يستطيع الجانى أن يتوارى عن الناس بجرمه، وأن يفلت بالتالى من عقاب الدنيا، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يفلت من عقاب الله الذى يعلم السر وما يخفى.. فى القرآن المجيد: "وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ

عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا".. (النساء: ٩٣).. لا ينجيه من هذا العذاب المقيم أن يلقى جزاءه فى الدنيا بعقاب ينزل به، أو بفدية يقبلها أهل المجنى عليه منه، أو بعفو يبذلونه له !!.. وفى صحيحى البخارى ومسلم، عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - بياناً منه لبشاعة القتل وفداحة جرمه الذى ينتزع روحاً خلقها الله - كان يقول: " ليس من نفسٍ تُقتل ظلماً - إلاّ كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل ".. فى الحديث الشريف أن كل الآدمى على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه، يقول عليه الصلاة والسلام لأصحابه:" لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفس بغير حق ".. " لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار. ".. يحذرهم عليه الصلاة والسلام فيقول لهم: "إن قتل النفس التى حرم الله" - من السبع الموبقات !!

ملاحقة القاتل بهذا الترهيب متعددة فى الإسلام.. فى القرآن المجيد: " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ".. (المائدة: ٤٥).. نفس الآدمى كما هى عزيزة عليه فإنها عزيزة على سواه، وكما هى غالية عنده فإنها غالية على غيره.. احترام الآدمى لروحه وحرصه عليها، يجب أن يردعه عن المساس بأرواح الآخرين.. إذا علم أن قبض روحه الغالية عليه هو هو ذات الجزاء العادل على إزهاقه روحاً أخرى، ردعه هذا عن المساس بأرواح الناس !

* * *

عناية الإسلام بمواجهة ومحاصرة آفة الثأر، عناية تنبع من تقديسه للروح الآدمية.. صحيح أن الإسلام لاتواجهه مشكلة " الثأر" فى المجتمعات المتحضرة المتنورة التى لا تنخر فيها عصبية " القبليات " وما تؤدى إليه من تعصبات ضريرة عمياء كانت ولا تزال وراء نار الثأر، بيد أن " القبليات " معضلة تعانى منها المجتمعات، وكانت تعانى منها شبه الجزيرة العربية وما حولها، ولا تزال تعانى منها مجتمعات أخرى هنا أو هناك.. كان على الإسلام أن يواجه - وقد واجه - هذه المعضلة التى كانت شائعة بمجتمعات الجاهلية التى

ضربت القبليات بعمق فى عاداتها وموروثاتها وتملكت من الناس فيها حتى صار التغنى بالقبلية والانتصار لها فى الحق وفى الباطل هو الصورة المعتقدة للبطولة، لا علاقة لها بالحق ولا موجباته، ولا بالعدل ومعادلته. ولا بالعقل وما يهدى إليه.. يعبر عن ذلك الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم حين يقول:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطيناً
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... كذاك البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً ... تخر له الجبابر ساجدينا

لا يلتفت الثأر - فى عماه وضلاله - إلى الحق والعدل، ولا إلى البرىء والمذنب، وإنما هو ثأر ضرير لا يميز، فإن ميز - فليس لإيقاع الثأر بمن فعل وتجنى وقتل، وإنما بمن تكون " الوجيعة "

فيه أثقل من الوجيعة فى غيره.. سواء فعل أم لم يفعل..فلا شأن للثأر بمن فعل، وإنما هو الانتقام الأعمى الذى يختار الضحية الموجعة للقبيلة المضادة.. وهذا هو أخطر ما يقوض أمان المجتمعات.. يتجلى ذلك حين نلاحظ أن قضايا الثأر قضايا قبائل وعائلات لا أفراد، وعرفت من أجل ذلك بما يسمى بالاتهامات الثأرية !!.. فالقتل الثأرى تقابله اتهامات ثأرية.. لا شأن لأيهما بموازين العدل ولا بشخصية المذنب.. لتبقى النيران مشتعلة إلى أن يحين الحين لواقعة ثأر مضادة، لتتوالى الواقعات. الطالب اليوم مطلوب غداً، وهكذا دواليك !! دون ما نهاية منظورة، إلاّ العقل الغائب، والدماء المسفوحة، والغل الذى يملأ النفوس بالأحقاد، ويقوض أمان المجتمع، ويورد الجميع موارد الهلاك !!

* * *

جذور الثأر والانتقام الأعمى ترجع إلى موروثات قديمة عانت منها المجتمعات والقبليات الجاهلية، لم يكن جنون الثأر يتوقف عند معنى العدل، فلا شأن لأصحاب الثأر به، يطلبون غير القاتل بالقاتل، والعدد أو الكثرة بالواحد..

يروى أن واحداً قتل آخر من الأشراف، فاجتمع أقارب القاتل عند والد القتيل لاسترضائه. وقالوا له: ماذا تريد ؟ قال: إحدى ثلاث. قالوا: وماهى ؟. قال: إما أن تحيوا ولدى. أو تملأوا دارى من نجوم السماء، أو تدفعوا إلىَّ جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أنى أخذت عوضاً !

فى حرص على قداسة الروح الإنسانية وتحريم القتل، لم يفرّق فى جزائه وعقابه بين من يقتل ابتداء، وبين من يقتل ثأراً.. القاتل لا يعفيه الثأر الذى يدفعه - لا من عذاب الله، ولا من عقوبة القانون. لا يقتصر العقاب على من يقتل بريئاً وهو عالم ببراءته، ولا على من يقتل مشتبها فيه بغير بينة، وإنما يمتد إلى كل إزهاق للروح التى حرم الله قتلها إلاّ بالحق - مهما بلغ اعتقاد الآخذ بالثأر بأنه ينزل ثاره على " شخص " من يستحقه. فهيهات أن يكون لآحاد الناس سلطة ولا مقدرة ولا إمكانية تحديد الجانى المطلوب الاستيفاء منه تحديدا يبتعد عن الهوى ويتوسد الدليل والبينة.

إن الثأر الذى حاربه الإسلام هو استسلام لعادات اجتماعية موروثة من الجاهلية - ضالة وخاطئة، ولمفاهيم مغلوطة عن الرجولة والشجاعة.. يتصور البسطاء، ومن أسف بعض المتعلمين، أن الثأر بطولة وشجاعة ورجولة ترفع عاراً.. مع أن الثأر هو العار نفسه، لا بطولة ولا شجاعة فيه.. الآدمى لا يركبه العار لكونه قويا ذا عزم استطاع بقوته وعزمه أن يكبح جماح غضبه ولم يستسلم لضلالة عمياء تدفع إلى إغضاب الله بمخالفة دينه وشريعته وإعمال التقتيل فى أرواح خلقها الله ولا يملكها سواه.. الآدمى لا يركبه العار لاحترام القانون وتفهمه أن تحديد الجانى وعقابه منوط بسلطة القضاء الذى يبحث ويدقق وينزل العقاب حيث ينبغى أن ينزل، وإنما العار يركب من يخالف دين الله وأوامر الله ويغتال الأرواح بضربات عشواء تعمل التقتيل فى الأبرياء إشفاءً لغليل ضال مضلل.. العار أن يكفر الآدمى ويقدم على هذه الكبائر وينهى حيوات خلقها ويملكها الله !!

يعلمنا الإسلام، الذى يقدس الروح الإنسانية - أنه لا ينتمى للشجاعة والبطولة قتل الناس غيلةً.. القتل ثأراً هو فى واقعه اغتيال مباغت - فى معظم الأحوال لأعزل - لا مواجهة ولا منازلة ولا مخاطرة ولا شجاعة ولا رجولة فيه. مهم جداً أن يفهم البسطاء، وأن يعى المتعلمون، أن هذا العمل هو العار ذاته، وأنه لا ينتمى لشجرة البطولة أو الرجولة أو الشجاعة. إذا فهم الناس ذلك، لم يبق إلاّ سلطان العادات الاجتماعية الجهولة الموروثة، ولا يقدر على منازلة هذه العادات والمفاهيم الخاطئة الضالة - سوى الدين. الدين هداية تستقر فى القلب والوجدان والضمير. الدين الإسلامى، بنوره وهدايته، هو الذى قضى سلفاً على كفر وشرك الآباء والأجداد، وهو الذى خرج بالناس من دياجير الظلام إلى نور الهداية.. الدين بما فيه من نور وهداية، وقواعد وأحكام، وبما له من قوة ومن تأثير على النفوس والعقول والأفئدة، قادر على أن يواجه ويهزم هذا الواقع الاجتماعى الجهول الأعمى، وتحقيق أمن وأمان المجتمع.. ولو استقر فهم الإسلام فى النفوس لتآكلت وسقطت من تلقاء نفسها هذه المفاهيم المغلوطة الضالة التى تدفع الجهلاء إلى الثأر المجنون الناجم عن الجهالة العمياء التى تسوق إلى ضلالة جزاؤها عند الله نار جهنم خالدين فيها أبداً وبئس المصير !.. تعلمنا مبادئ الإسلام أن القوة الحقة، والبطولة الحقة، هى فى الصبر والعزم وكظم الغضب والإيمان بأن الله تعالى.. المهيمن العزيز، الفتاح العليم ،السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف الخبير.. هو سبحانه الكفيل بإحقاق الحق والعدل، وأن الجانى أيا كان احتياطه، لابد ملاق جزاءه.. فى الدنيا وفى الآخرة، وأنه إذا كان عذابه فى الآخرة مقطوعاً به، أخبر عنه القرآن المجيد، فإن الالتفات الجاد إلى معاونة العدالة بدلاً من تجاهلها، كفيل بتحقيق أمن المجتمع، وكفيل بأن تصل السلطة القضائية إلى غايتها، وأن تحدد الجانى، وأن تنزل به العقاب الواجب، بدلاً من أنهار الدم المسفوكة هنا وهناك فى دائرة لا نهاية لها من العنف والثأر المجنون !!

لقد واجه الإسلام بحكمة ورشاد - القبليات المقيتة التى شاعت فى الجاهلية ليقتلعها ويداوى آثارها.. لفت الأنظار إلى أن الناس جميعاً أبناء أصل واحد وأسرة واحدة.. خلقهم الله تعالى من نفس واحدة.. ، وقال فى قرآنه المجيد:.. " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء "..(النساء: ١).. أصل الإنسانية أمة واحدة" وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ " (يونس: ١٩).." كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ " (البقرة: ٢١٣).. " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ " (الحجرات: ١٣).

حرص الإسلام فى محاربته لآفة الثأر على أن يلفت نظر الآدمى إلى الأخوة الإنسانية التى تسمو على ما عداها، ولا محل إزاءها للتمسك بقبليات لأنها على ضوء " الأسرة الواحدة " التى تنتمى إليها البشرية - لا تعدو أن تكون قرابات وقتية عارضة فى زمن ما، تنحسر لتصب فى النهاية فى الأسرة الإنسانية الكبرى التى تضم الناس جميعاً بلا عصبيات ولا قبليات ولا أعراق.. هذه الأخوة الإنسانية تشكل معلماً أساسياً من معالم احترام الإسلام للروح الإنسانية ورعايته لها.. فضمور القبليات يصب فى النهاية ضد عادة الثأر وما تسفكه من دماء وأرواح، ويحض الناس على الاحتكام للقانون بدلاً من شرعة الغاب، بذلك حفظ الإسلام للروح الإنسانية قداستها وحماها من نيران الثارات وكفل للمجتمع الإسلامى أمنه وأمانه.

رأينا كيف أن القرآن المجيد قد جعل لنا فى القصاص حياة، لأنه بالردع الخاص وبالردع العام يرد الناس عن الاقتداء بالقاتل أو القتلة، ويغلق أبواب المحاكاة فى الشر والقتل والاستهانة بالأرواح !!.. كذلك جعل القرآن لنا حياة فى سعيه للقضاء على القبليات، مثلما جعل لنا حياة فى سياسة " العفو " الذى أباحه للمجنى عليه أو ذويه فى جرائم النفس.. لتطبيب وتضميد الجراح. تطبيب الجراح والتصالح عن رغبة وإرادة يغلق باب الثارات، ويحافظ على

حيوات الناس، دون إخلال بحساب الجانى عند الله فى الآخرة.. فى المجتمعات القبلية لا تنغلق أبواب ولا ويلات الثارات، ونتيجتها سفك الدماء وحصد الأرواح.. يقتلون العدد بالواحد، ويأخذون الإنسان بالبهيمة، ويستهدفون بالثأر من لا وزر له ولا ذنب ولا جريرة ما دامت وجيعة القبيلة الأخرى فيه أشد من وجيعتها فى سواه من أبنائها.. هذه الثارات ويلات ودمار وإعدام للحياة.. غلقها هو بعث للحياة وحرص عليها من هذا الانفلات الأعمى الذى لا يبقى ولا يذر.. والعفو الذى أباحه الإسلام للمجنى عليه أو ذويه سياسة ينبع من فهم حكيم عميق لسلبية العصبيات القبلية وعماها الضرير.. هى سياسة تخير بين القصاص والعفو.. والخيرة ترضى وتضمد وتطبب الجراح..

مع حرص الإسلام على الترهيب من وزر القتل. وعقابه دنيويا بالقصاص، والترهيب من جزاء الآخرة.. فإن الإسلام فتح بسياسته الحكيمة أبواباً لحقن الدماء حفاظاً على الروح الإنسانية التى يستخرج القرآن المجيد والسنة المطهرة أطيب ما فيها لارتضاء الصلح وبذل العفو.. فمع قول القرآن: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ".. (البقرة: ١٧٨).. وقوله: " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ ".. (البقرة: ١٧٩).. فإنه يحث على الصلح والعفو، ويدعو إليهما.. يقول القرآن المجيد: " فمن عُفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة " (البقرة: ١٧٨).. فى السنة الشريفة أنه صح عن أنس رضى الله عنه أنه قال: " ما رفع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أمر فيه قصاص، إلاّ أمر فيه بالعفو ".. العافى الذى يصلح أجره وثوابه على الله - " فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ " (الشورى: ٤٠).. فى عموم العفو كسجيةٍ عامة.." خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ.. (الأعراف: ١٩٩).." وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ".. (البقرة:٢٣٧).." وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ".. (التغابن: ١٤).." إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ".. (النساء: ١٤٩).." وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

" (النور: ٢٢).. وقد وصف القرآن المؤمنين بأنهم العافون عن الناس فقال فيهم:.. "وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ " (آل عمران: ١٣٤)..

* * *

العفو فى جرائم النفس، فرع على سجية عامة هى سجية " العفو " التى أخذ بها الإسلام فى مواضع كثيرة حرصاً على بث السلام وحفاظاً على الوشيجة والآصرة الإنسانية، على أن العفو فى جرائم النفس يلتئم مع القصاص فى غاية كبرى هى الحفاظ على الحياة الإنسانية.. جعل الله لنا فى القصاص حياة، وجعل لنا أيضاً فى العفو حياة، بغلق باب الثارات وحصد الأرواح وسفك الدماء.. دون أن يهمل النذير للجانى بأنه إن أفلت من عقاب الناس والدنيا، فلن يفلت من عقاب الآخرة.. بل هو عند الله تعالى آثم ومغضوب عليه وملعون.. يقول القرآن المجيد: " وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا". (النساء: ٩٣).

كان الجفاة الغلاظ، يستخفون قبل الإسلام بالروح الإنسانية، حتى فى بنيهم وفلذات أكبادهم، يئدون البنات كراهةً لإنجابهن أو مخافة لحاق العار بهم، ويقتلون أولادهم خشية الإملاق والفاقة ونضوب القدرة على إعاشتهم والإنفاق عليهم.. إلى هؤلاء نزل القرآن الحكيم مقدساً للروح الإنسانية، آمراً باحترامها.. يقول للوائدين منذراً ومحذراً ومرهباً.." وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ". (التكوير: ٨، ٩). هذا البيان القرآنى إنما يرد على سبيل التبكيت والتقريع للوائدين.. لافتا منبها إلى أن الموءودة لم ترتكب بداهة ما يبيح أو يبرر قتلها ؟!.. هؤلاء ضعاف العقول والأفهام الذين فيهم قال القرآن:" وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ" (النحل: ٥٨، ٥٩).. ويقول القرآن لفاقدى الثقة والإيمان، القاتلين لأولادهم خشية الفقر والإملاق.. " وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيرًا" (الإسراء: ٣١) (الأنعام: ١٥١).. الخوف من الفاقة هو ضعف فى

الإيمان.. المؤمن الحق يعلم أن الله تعالى هو الرزاق.. ما من مخلوق إلاّ ويوافيه سبحانه برزقه، حتى الدواب.. " وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا " (هود: ٦).. لا تنتهى الآية الكريمة فى نهيها عن هذه الجريمة الكبرى التى نهت عنها، دون أن تقول إن ما مضى من هؤلاء الجفاة الذين استحلوا قتل أولادهم إنما كان خطأ كبيراً !!

من هذا الحرص الحريص على الروح الإنسانية وعلى الحياة، ما روى عن رسول القرآن.. كان صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول فى النار ".. فقيل هذا القاتل، فما بال المقتول ؟ قال صلى الله عليه وسلم: " إنه كان حريصاً على قتل صاحبه ".. بل إن الإسلام فى حرصه على الروح وعلى الحياة الإنسانية نهى عن الانتحار، وعده قتلاً لنفسٍ حَرم الله تعالى قتلها.. حتى على صاحبها.. وفى حديث رسول القرآن: " من قتل نفسه بحديدة، فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه، فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا.. ومن قتل نفسه بسم، فسمّه فى يده، يتحساه فى نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبدا.. ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو متردد فى نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبدا ".. وروى الشيخان عن جندب البجلى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " كان من قبلكم رجل به جرح فجزع، فأخذ سكيناً فحَزَّ بها يده فما رقأ الدم (أى لم يتوقف عن النزف) حتى مات، قال الله تعالى:

" بادرنى عبدى بنفسه حرّمت عليه الجنة ".

الأسير، مع أنه قد يكون مقاتلاً آذى وقَتَل، إلاَّ أن روحه مصونة، بل هو مرعى محفوظ الحق والكرامة، وإطعامه واجب على آسره.. ففى القرآن المجيد:.." وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا " (الإنسان: ٨)، والمنّ عليه بإطلاقه من الأسر سابق على الفداء.. "فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ".. (محمد: ٤).. الإسلام الذى يحترم روح الأسير ولا يمسها، يحترم أيضاً روح المعاهد الذى هو أصلاً من أهل دار الحرب الذين

شنوا الحرب وقاتلوا وقَتَلوا.. روى عن عبد الله بن عمر، عن رسول القرآن صلى الله عليه وسلم قال: " ومن قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ".. وعنه عليه الصلاة والسلام أيضاً: " ألا من قتل نفساً معاهدة، لها ذمة الله، وذمة رسوله، فقد أخفر ذمة الله، ولا يرح رائحة الجنة "..

تقرير مبدأ شخصية المسئولية فى الإسلام، يصب فى النهاية فى صالح الروح الإنسانية وعدم جواز المساس بها ووجوب احترامها والنأى بها عن أى عقاب إلاّ لوزر شخصى ثبت فى حقها ثبوتاً مؤكداً معدوداً يستوجب عقابها حقاً وعدلاً.. بغير ذلك فإن الروح مصونة لا تُمس.. فى شرعة الإسلام أن المسئولية شخصية.. لا يسأل الشخص إلاّ عما فعل، لا محل لمساءلته شرعاً عن فعل سواه مهما كانت درجة قرابته أو انتمائه إليه.. المسئولية فى شريعة الله شخصية.. فى القرآن الحكيم: " وكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ " (الإسراء: ١٣)، " كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ". (الطور: ٢١).. وفيه أيضاً: " ولا تزر وازرة وزر أخرى ". (الأنعام: ١٦٤، فاطر: ١٨).. " أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى. وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى". (النجم: ٣٨، ٣٩).. " فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ". (الزلزلة: ٧، ٨).. - فلا يلحق العقاب، ولا يجوز أن يلحق، إلاّ بمن ارتكب الجرم وثبت فى حقه ثبوتاً يقره الشرع والقانون، بغير ذلك تكون المساءلة ظلماً، " وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ". (غافر: ٣١).

أينما يطوف المسلم، وغير المسلم - فى رياض الإسلام، يجد دوحة أظلت الروح الإنسانية بكل رعاية وأقامت سياجاً عالياً لحفظها.. الدين الذى يقدم هذا كله، حرصاً على الروح الإنسانية، وحماية ووقاية لها، ليس دين عنف ولا دين سيف ولا خنجر ولا مدفع ولا قنبلة.. آخر ما يمكن أن يتهم به الإسلام أن يقال إنه يبيح الاستهانة بالأرواح.. إن الدين الحنيف الذى يقيم هذه الترسانة الحكيمة لوقاية الروح الإنسانية واحترامها وحمايتها والحفاظ عليها - لا يستهين ولا يمكن أن يستهين بها.. هذا ادعاء باطل أظهر ما فيه بطلاناً تعمده خلط الدفاع

الشرعى بالاعتداء المؤثم.. الدفاع عن النفس والعرض والمال مباح فى كل شرائع السماء وقوانين الناس، ولكن يبقى للإسلام أنه قدس الروح الإنسانية تقديساً لا مثيل له فى أى دين من الأديان أو شريعة من الشرائع.. هذا الدين الجامع الذى أنزله الله تعالى رسالة للعالمين.

* * *

لقد رأينا فيما تقدم نقلا عن البحوث القيمة التى قدمت فى مؤتمر الأمن المجتمعى فى الإسلام، أن الأمان غاية إسلامية وضع لها الإسلام المبادئ والأحكام والقواعد، وأحاطها بمظلة شاملة تكفل تحقيق " نعمة الأمان " التى جاءت فى مقدمة الإنعامات الإلهية، فهى نعمة النعم، وليدة لعدل، ودستورها العقل والصلاح والاستقامة والبناء والبرّ والصدق والتراحم والاطمئنان والتسامح والمساواة والوسطية واحترام وتقديس الروح الإنسانية.. هذه النعمة -" نعمة الأمان " - نراها حاضرة جلية من بين النعم الجزيلة التى أنعم الله عزّ وجل بهـــا على المؤمنين الصادقين، فيقول عزّ من قائل فى كتابه العزيز:" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِـــي شَيْئًا وَمَـــن كَفَـــرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُـــمُ الْفَاسِقُونَ" (النور: ٥٥).